المكتبة الثقافية

٤٥

صراع على أرض الميعاد

محمد عطا

١٥ سبتمبر ١٩٦١

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

رواد الوعى الإنسانى

فى الشرق الإسلامى

الدكتور عثمان أمين

اول أكتوبر ١٩٦١

الثمن ٢ مـ

دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية
٤٥

صراع على أرض الميعاد

محمد عطا

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ سبتمبر ١٩٦١

الناشر



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١



في طورهم الأول

ينتسب اليهود إلى جدهم الأول إبراهيم أو إبرام ، الذى كان موطنه الأول « أور » الكلدانيين « العراق » ثم نزح منها وأسرته إلى بلدة شكيم مكان مدينة نابلس الآن بعد أن مر بشرق الأردن وعبر النهر ومر بالغور المعروف اليوم بغور الفارعة .

ولم يطل به المقام فى هذا البلد ، فارتحل مع جماعته إلى بيت — إيل — ولعلها بيت — إين — اليوم ثم خلفها إلى الجنوب ومن هناك تابع مسيره إلى مصر .

وأرجح أنه لم يمكث طويلا فى البلاد التى انتقل إليها ؛ لأنها كانت تحت حكم الكنعانيين وهم من العرب ، وأن هؤلاء الكنعانيين كانوا أقوياء الشكيمة ! ! مترابطين أقوى ارتباط ،

ينظرون بعين حذرة إلى الغرباء ، وبخاصة هؤلاء المرتحلون الذين في طباعهم خشونة ، وفي نظراتهم ريبة ، ولا يؤمنون بالعادات التي بها يؤمنون ، ولا يخضعون للتقاليد التي يأخذون أنفسهم بها ، وقد يكونون ممن يعيشون على السلب والنهب وإثارة الفتن والقلاقل .

* * *

ارتحل إبراهيم وأسرته إلى مصر ليلتمس فيها الأمن والطمأنينة ، وقد طاب له المقام فأهدى إليه فرعون غنما وبقرا وحميرا وعبيدا وإماء وأتنا وجمالا ، ونفحه ذهبا وفضة فأثرى إبراهيم من ذلك ثراء عظيما وأصاب قوة وعزما .

وبعد أن أصاب ما أصاب من الثراء !! اعتزم الرحيل والعودة من حيث أتى . . .

عاد إبراهيم إلى بيت « إيل » ثم انتقل منها إلى حبرون — مكان مدينة الخليل اليوم — وبنى فيها مذبحا للعرب .

وظهرت قوة إبراهيم وشجاعته عندما تكون حلف تحت زعامة « كدرلا عومر » ملك عيلام وهاجم ملوك سدوم وعموره وأدمه وصبوئيم وبالغ فهزمهم وأسر كثيرا منهم ومن بينهم لوط أخو إبراهيم ، فما كان من إبراهيم إلا أن تحالف مع الأموريين وهجم ليلا بجموعه وأهل بيته وقد قدروا بـ ٣١٨ فردا — على الجيش المنتصر فتغلب عليه واسترجع الأموال المنهوبة

وحرر من القيد أخاه وسائر الأسرى فكبر فى أعين حلفائه وبدأ التاريخ يسجل مواقفه .

وبعد ذلك ارتحل إلى الجنوب ونزل بجوار (شرق خان يونس) - يقال لها اليوم أم الجرار — فى منطقة بئر السبع وظل فيها حتى مات ودفن فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون الحثى . .

وأنجب إبراهيم إسحاق من امرأته ساره بعد أن بلغا من الكبر عتيا ومن قبل إسماعيل من امرأته هاجر المصرية ، ولإسحاق ولد يعقوب الذى ينتسب إليه الإسرائيليون ، أما إسماعيل فزوجته أمه من امرأة مصرية بعد أن أبعده أبوه واستقر مع أمه وأسرته فى « برية فاران » وظل يعقوب فى مكانه من فلسطين حتى كان حادث يوسف واخوته ، وبيع يوسف « لفوطيفار » رئيس شرطة فرعون وأصبح يوسف فيما بعد ذا نفوذ فى الدولة المصرية ، والقوام على خزانتها ، ثم بعث فى طلب والده وأسرته ليستقروا فى مصر ويقيموا بها ويرجح أن يكون هذا الاستقرار فى عهد الهكسوس .

أخذ الإسرائيليون يتكاثرون فى مصر وينسلون حتى كبرت جاليتهم فيها ، وربما أثروا كذلك وازدهرت معيشتهم

ولعلهم أضحوا على هذه الحالة الميسرة لأنهم أعانوا الهكسوس على حكم مصر ، ومكنوا لهم فيها فما إن دالت دولتهم وقامت الإمبراطورية المصرية حتى أخذ المصريون يثارون منهم ويضطهدونهم ويضيقون عليهم ويسخرونهم فى بناء الهياكل والمعابد ، وبلغ الاضطهاد ذروته على عهد رمسيس الثانى .

لم يجد بنو إسرائيل المقيمون فى مصر بدا من التفكير فى الارتحال عنها والعودة إلى الأرض التى وفدوا منها ، وكان أن استقر رأيهم على الخروج فى عهد منفتاح الثانى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، بتدبير من نبيهم موسى وتحت قيادته ، خرجوا من غير أن يشعر المصريين بخروجهم وأظهروا أنهم سيحتفلون بعيد لهم فاستعاروا من جيرانهم المصريين حليهم وأغلى ملابسهم ثم ساروا فى طريقهم .

وفى خروجهم هذا ذاقوا الويلات ، ونزل بهم البلاء ، وضرب عليهم التيه فى الصحراء أربعين عاما ، حتى انتهى بهم المطاف — وهم أشد ما يكونون إعياء — إلى شرق الأردن وقد استقروا هناك حتى استردوا أنفاسهم اللاهثة واستعادوا نشاطهم وأخذ أنبياؤهم يرفعون معنويتهم ويسيلون لعابهم ليخرجوا من أرضهم هذه ليستقروا فى غرب الأردن ، ومن هناك ينشرون

نفوذهم ، ويبسطون سلطانهم ، وفى ذلك يقول كتابهم حين كلم الرب نبيهم ورسولهم موسى « فقال : إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل سخريتهم .. إنى علمت أوجاعهم !! فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين ، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة . إلى أرض تفيض لبنا وعسلا .. إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين » « الإصحاح الثالث .. سفر الخروج » ..

فى هذه الفترة ،هرم موسى فعين يشوع بن نون رئيسا على بنى إسرائيل،وفى عهد موسى كما يروى كتابهم،سيرت حملة على المديانيين أى : أهل مدين ، وكانت حملة انتقامية ليس لها ما يبررها نثبتها هنا لنبرز روح الشر التى تأصلت فى بنى إسرائيل ، والتى تعددت على الأزمنة الماضية والحاضرة فى صورة مثيرة ؛ إذ أن الحملة كانت حملة إبادة وإفناء على ما رواه الإصحاح الثانى والثلاثون من سفر العدد فقتلت جميع الذكور وسبيت النساء والأطفال ، وغنمت جميع الماشية والأثاث ، وأحرقت المدن والمساكن والقصور ..

وبهذه الروح الانتقامية ، سارت حملات يشوع

الذى جعل دستوره قول ربه : « إذا أدخلك الرب إلهك ، الأرض التى أنت صائر إليها لترثها ، واستأصل أمما كثيرة من أمام وجهك الحيثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، سبع أمم أعظم وأكثر منك ، ودفعهم الرب إلهك ، وضربتهم فأبسلهم إبسالا (أى أبدهم) لا تقطع معهم عهدا ولا تأخذك بهم رأفة ولا تصاهرهم . . « الإصحاح السابع سفر التثنية » .

كان كذلك يشوع وكان شاؤول (طالوت) أول ملك – من ملوك الإسرائيليين – انتهت حياته أسوأ نهاية حيث انتحر سنة ألف قبل الميلاد .

ولم تتوحد المملكة الإسرائيلية إلا فى عهد داود وابنه سليمان ، حيث كانت العاصمة بيت المقدس ، ثم انقسمت على نفسها بعد موت سليمان (٩٣٥ ق . م .) إلى دولة إسرائيل فى الشمال ، وظلت قائمة حتى سنة ٧٢١ ق . م حيث سقطت على يد – سرجون الثانى — ملك آشور وأصبحت ضمن الولايات الآشورية . .

وإلى دولة يهوذا فى الجنوب وبقيت حتى سنة ٥٨٦ ق . م حين اجتاحها نبوخذ نصر (بختنصر) الملك الكلدانى البابلى

العربى ، الذى قتل صدقيا ونهب أورشليم وسبى أهلها إلى بابل وأقام عليها واليا من قبله .

ومرد سقوط الدولتين إلى انقسامهما ونشوب الحرب بينهما ، وإسراف سليمان وفتوة الدولتين المغيرتين (بابل وآشور) وما حدث من انتفاضات الفلسطينيين وانتفاضات المؤابيين والعمونيين والأدوميين والسياسة الغاشمة سياسة القوة التى فرضها بنو إسرائيل على البلاد التى فتحوها . .

ظل اليهود مشتتين بعيدا عن فلسطين أو أرض الميعاد ، سواء فى بابل أو فى آشور ، يعيشون كأسرى حرب إلى أن استطاع كورش الفارسى الانتصار على بنو نيدس آخر ملك بابلى ، فاستعان كورش باليهود وليكونوا له عيونا فيها ، ويستعين بدهائهم على حكم أصحاب البلاد من الكنعانيين ، وأباح لهم العودة فى سنة ٥٣٨ ق . م وأقام معبدهم من جديد فى أورشليم فاستجاب له بعضهم وآثر الآخرون البقاء فى أرض بابل وآشور . .

وقد صاحب عودتهم إلى فلسطين ظهور موجة استياء ، بين الأهالى المقيمين لخطرهم فأخذوا يقيمون العراقيل فى سبيل تجديد معبدهم ، واستجاب لهم أكاسرة الفرس إلى أن كان داريوس الثانى الذى تزوج من يهودية استطاعت بدهائها

ونعومتها أن تستصدر أمرا بتحرير اليهود والعودة إلى بناء المعبد . .

* * *

ثم كانت هزيمتهم القاسية التالية على يد بطليموس فى عام ٣١٢ ق . م حين غزا فلسطين واستولى عنوة على أورشليم ، وقسا على اليهود ، وأسر منهم أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نفاهم إلى مصر . .

* * *

وفى عصر الرومان دمر تيطس أورشليم فى سنة ٧٠ ق . م وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، ولم يبق منهم بفلسطين إلا أقلية حيث جلا الكثير منهم إلى الأقطار الأخرى المجاورة كمصر وقبرص وليبيا ، وبلاد ما بين النهرين ، وفى هذه البلاد التى آوتهم ثاروا على أهلها وأعملوا فيهم القتل ، فما كان من تراجان (٩٨ — ١١٧ ق . م) إلا أن أرسل قواده فأخمدوا ثورتهم بشدة وعنف ، وأرادوا فى ذلك الوقت إثارة الفتنة فى الإسكندرية ولكن أهلها قاوموهم مقاومة عنيفة ، وقضوا عليهم قضاء مبرما .

وثاروا فى فلسطين حوالى سنة ١٣٢ م فى عهد هادريان

بقيادة رجل منهم اسمه بركوكبا أى « ابن الكوكب » اعتبروه المسيح المنتظر ، وأخذوا يقتلون جند الرومان وغيرهم من الأهالى الأصليين فأعمل واليه فيهم القتل دون استثناء بين رجل وامرأة ، أو شيخ وطفل ، ولما تسامع هادريان بما فعلوا ، جن جنونه وأوفد إليهم قائدا من قواده وأوصاه بان ياخذهم بالعنف والقسوة فاخذ يضيق عليهم عامين متواليين حتى دمر لهم تسعمائة قرية ، وهدم خمسين حصنا وبلغ عدد القتلى بالسيف ٥٨٠ ألفا عدا من هلك منهم جوعا ومرضا وحرقا ، وسبى كثيرا من النساء والأطفال وباعهم بابخس الأثمان وغذى بلحومهم أسود الملاعب وحرم على اليهود دخول أورشليم إلا يوما واحدا فى العام لينوحوا على خرائب المدينة . .

* * *

ثم ذاق اليهود فى فلسطين الأمرين ، فى عهد قسطنطين الأكبر ، وأخذت الكنيسة المسيحية تضطهدهم اضطهادا شديدا ؛ لما لقيته المسيحية على أيديهم من ضربات قاسية ؛ وما وجهوه إليها من تهوين وتحقير ورموه بها من اختلاق وإرجاف .

هذا هو التاريخ المجمل لبنى إسرائيل حتى الدعوة الإسلامية وإنه ليقودنا إلى أن نردد مع ه . ج . ولز قوله : وكان استقلال

أرض يهودية على الدوام أمرا مقيدا وغير مستقر »[1] وإلى أن نرى معه أن اليهود لم يكونوا فى أرض فلسطين فحسب بل كانوا منتشرين فى أراض أخرى كما ذكر ولز حين قال :

« ولم يحدث قط أن كان مقام القسم الرئيسى من اليهودية فى أرض يهودية كما أنه لم ينبعث قط من ذلك القطر »[2]

وهذا ما يبطل ادعاء الصهيونية ، فى أن فلسطين الوطن القومى لليهود بل على النقيض هم قوم طارئون على فلسطين ، التى كان يسكنها عرب خلص وهم الكنعانيون قبل أن يكون بنو إسرائيل ، ثم إن فلسطين قد فتحت فى عهد عمر بن الخطاب وعادت عروبتها كاملة خالصة ، وقد أعطى عمر بن الخطاب أمانا إلى أهل القدس ومما جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان . . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث تعريب عبد العزيز توفيق ص ٥٤٥ .

(٢) المؤلف السابق ص ٥٤٤ .

ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود .

ويدل هذا النص على تخوف المسيحيين من الإسرائيليين ، فأثبتوا فى العهد ألا يسكن يهودى فى بيت المقدس ووافقهم عمر على ذلك ، لأنه يوقن بأنهم على حق فى تخوفهم ، فقد عرف اليهود من تاريخهم ، وعرفهم من النصوص القرآنية ، وعرفهم من محاربتهم الدين الإسلامى ، ومحاولتهم إطفاء نوره عندما بزغ فى الجزيرة العربية على عهد محمد عليه الصلاة والسلام .

فلم كان بنو إسرائيل مبغضين هذا البغض ؟

كانوا كذلك لأنهم اعتقدوا بنص توراتهم — التى يعتنقون مبادئها — أنهم شعب الله المختار وأن من عداهم أدنى منهم فاطلقوا عليهم لفظ « جوبيم » أى أنهم يؤمنون بالتفرقة العنصرية وبالامتياز شأنهم شأن العقيدة النازية فيما بعد . هذا إلى غلظ أكبادهم وتحجر قلوبهم وتلوث أيديهم بالدماء وإلى الانعزالية الفكرية التى وضعوا أنفسهم فيها فلم يشاءوا توسيع آفاقهم ، والاندماج العقلى فى الثقافات العالمية الأخرى .

أضف إلى كل أولئك ما فيهم من تعصب بعضهم لبعض

فاليهودى يناصر أخاه حيث وجد ، ويشجعه ويعينه على أن يستبيح أموال الآخرين ويستحلها لنفسه ؛ لأنه يعتبر غير اليهودى عبدا له . . وهم يؤمنون بالمبدإ الخطر : الغاية تبرر الوسيلة « كما قصت توراتهم حكاية هبوط إبراهيم أرض مصر ، وماحدث لزوجته ، وغيرها مما يشبهها كثير . . وتبريرا لهذا المبدإ يعينون كل غاصب ويسيرون فى ركاب كل حاكم ليصلوا إلى أهدافهم كما فعلوا مع داريوس الفارسى .

ومثل هذه المبادئ والطباع تحمل غيرهم على أن يعزف عنهم وأن يشك فيهم كل الشك وأن يبعدهم عن كيانه ما أمكنه إلى ذلك سبيلا ، حتى يبقى على نفسه ويدفع عن مجتمعه التحلل والتفرق والضعف .





عرفنا فيما سبق ، السلوك الذى سيطر على بنى إسرائيل حين استأثروا بالحكم والروح القبلية التى تستبد بهم ، وسجلتها التوراة التى فى أيديهم فى فخر واعتزاز ، وما ذاقه أهل البلاد الأصليون العرب على أيديهم من النكال ، ثم دار الملك دورته ، وكان الدين الإسلامى !! وقد حاول اليهود فى يثرب أن يقضوا على هذا الدين الناشىء وأن يزعزعوا كيان حكومته القائمة ليظل لهم سلطانهم القديم ، ويفيدوا من الانقسام فى المجتمع العربى ، فأخذ زعماؤهم يسعون لدى القرشيين ليثأروا لأنفسهم من قتلى بدر ، وقاموا بدور خطير آخر حين غزوة الخندق ؛ حيث تحالفت الأحزاب والقبائل على أهل المدينة المسلمين الذين مروا فيها بأحرج المواقف وأدقها ، وتهددهم الفناء ، فما كان من النبى عليه السلام إلا أن أخذهم بالشدة والحزم ، ولولا ما أظهروه من تهوين شأن الدين

الإسلامى ، وما أذاعوه من أراجيف حول القبلة وغيرها من أركان الدين الجديد ، وما قاموا به من تحريض ونكثهم بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم للنبى عليه السلام لولا كل أولئك لما أصابهم هذا التشتيت ولما أجلوا عن البلاد التى كان يحلون بها .

ثم أخذ الدين الإسلامى ينتشر والفتوحات تمتد حتى شملت الشام والعراق ، ولم يحاول العرب القائمون أن يردوا أحدا عن دينه ، وأن يحملوا اليهود أو غيرهم على أن يسلموا ، بل تركوا الناس أحرارا فى عقائدهم ، يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية ، وينعمون فى ظل الحكم الإسلامى بالأمن والسلام ، ولم يشاءوا أن يفرضوا الجزية على فقراء اليهود ، بل على النقيض من ذلك ؛ أعانوهم على الحياة ومدوا لهم فى أسبابها « فقد روى أن عمر بن الخطاب مر عليه سائل يسأل وكان شيخا ضريرا فضرب عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : فما ألجاك إلى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية والحاجة والسن . . فاخذ عمر بيده وذهب إلى منزله ، فرضخ له بشىء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله

عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب ووضع الجزية عنه وعن ضربائه(1) . .

وفى ظل الدولة الإسلامية عاش اليهود جنباً إلى جنب مع المسلمين وتعلموا اللغة العربية ، واشتغلوا بالترجمة والعلوم ، وأسندت إليهم مناصب ذات مسئولية فى الحكومة ، وبلغ عدد اليهود فى العراق وحدها فى العصر العباسى ٦٠٠ر٠٠٠ ، وكان كبيرهم يلقب أحيانا بالملك ويدعى رأس الجالوت « وكان إذا ذهب إلى لقاء الخليفة ظهر فى ثوب حريرى مطرز ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، تسطع بالجواهر ، ويحيط به ركب من أتباعه الفرسان، وقد سار فى مقدمة الركب مناد يصيح : «أفسحوا الطريق أمام مولانا ابن داود»(2) .

أما فى سورية فكان معظم الصيارفة وأصحاب المصارف من اليهود ، وفى بغداد كانت لهم مستعمرة ، ظلت قائمة مزدهرة حتى سقوط المدينة فى يد المغول ، وروى أنه كان بها عام ١١٧٠م عشر مدارس ربانية وثلاثة وعشرون معبدا ، زخرف المعبد

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى حـ ١ ص ٤٧٢ تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن .

(٢) تاريخ العرب حـ٢ ص٤٥٠ تأليف فيليب حتى وترجمه مبروك نافع.

الرئيسى منها بالرخام الملون وحلي بالذهب والفضة .

وكان كبيرهم هو الذى يقوم بتحصيل الضرائب من سائر اليهود فيحتفظ لنفسه بالنصف ويبعث بالنصف الآخر لى بيت المال .

وشهد بهذا التسامح — برنارد لويس — حيث قال : « كان وضع أهل الذمة فى الحكومة الإسلامية أفضل بكثير من وضع تلك الجماعات التى كانت على خلاف مع الكنيسة الغربية فى غرب أوربا فى الفترة نفسها ، فقد كانوا يمارسون عباداتهم بكل حرية ، وكانوا متمتعين بحقوق الملكية العادية ، وكثيرا ما كانوا يستخدمون فى وظائف الدولة ، وكانوا فى العادة يشغلون أعمالها ، وسمح لهم بدخول نقابات المهن وسيطروا على بعضها ، ولم يجبروا أنفسهم مجبرين على الاستشهاد . كما أنهم لم يتعرضوا للنفى فى سبيل معتقداتهم »[1] .

هذه كانت حال اليهود فى ظل الدولة الإسلامية فهل جازوها جميلا بجميل ؟

ربما أدى بعضهم خدمات لهذه الدولة ، ولكن لم يكن حبا فيها ، بل إشفاقا على أنفسهم من ناحية ، وليصيبوا مالا وثروة ونفوذا من ناحية أخرى ، ولكن بعضاً آخر دخل فى هذا الدين

(١) العرب في التاريخ ترجمه فارس وزايد ص ١٣٢ ، ص ١٣٣ .

الجديد ، واستحدث فيه ما ليس منه ولا من روحه فعمد داهية منهم هو عبدالله بن سبأ إلى القول بمذهب الرجعة أى برجعة على بن أبى طالب فى يوم من الأيام إلى الأرض لإقامة دعائم الحق والعدل ، وهذه من الإسرائيليات التى تذهب إلى أن النبى إيليا سيظهر فى المستقبل ويملأ الدنيا عدلا .

وذهب هذا الداهية أيضاً إلى تأليه على وأن الله جل وعلا قد حل فيه وهذا ما يدعى — بمذهب الحلول — .

وهذه الآراء تعتبر الأسس الجوهرية لغلاة الشيعة ، والتى جرت الانقسام على الدولة الإسلامية وأثارت فيها الفتن والاضطرابات والحروب .

* * *

قد يرى بعضهم أن اليهود فى أسبانيا ، كانوا من العوامل التى أدت إلى تثبيت أقدام العرب فيها ، وهذا صحيح ، ولكنهم فعلوا ذلك للإرهاب الذى كانوا يعانون منه فى ظل الحكم القوطى ، ومعاملتهم معاملة قاسية ، والتضييق عليهم وحملهم على التنصر واستعباد من لا يقبله دينا فأعانوا العرب حتى يحيوا حياة طيبة ، وقد ظفروا بهذه الحياة فسمح لهم العرب بمزاولة التجارة وأسندوا إليهم بعض المناصب الكبرى ، وأصبح الطب مقصورا

عليهم ، وأضحوا عنصرا هاما فى التجارة والثقافة وأصبحت قرطبة مركز الدراسات العبرية وكان لهم نظام إدارى خاص بهم ، واختطوا لأنفسهم مدينة خاصة تبعد أربعين ميلا عن قرطبة . ومن عاش منهم فى قرطبة عاش عيشة المياسير الأغنياء ، واختير حسداى بن شبروط ، ليكون كوزير للخارجية يستقبل السفراء الوافدين على البلاط الأموى فى الأندلس .

أى أنهم نعموا بحياتهم ، واستخدموا أقصى طاقاتهم ، وبلغوا أسمى المناصب ، وتمتعوا بشىء كثير من التسامح ..

كان هذا جزاؤهم ونعم الجزاء .

* * *

هذا ولم يذكر التاريخ فى ظل هذا الحكم أن الإسرائيليين قد طالبوا بولاية أوسعوا إلى أن تكون لهم دولة فى فلسطين أو فى غيرها ، بل إن الحياة التى نعموا بها قد جعلتهم يناون عن أن يطالبوا بالعودة إلى فلسطين أو أن يتركزوا فيها بل إن الثقات من المؤرخين ذكروا أنه فى أثناء الحروب الصليبية لم يسكن حيهم فى بيت المقدس إلا أربعة أنفس وفى رواية أخرى نفس واحدة .

على حين أن عددهم فى دمشق بلغ فى هذه الفترة ثلاثة آلاف ، وفى حلب خمسة آلاف .

وكان يمكنهم أن يفعلوا ذلك وبخاصة فى أثناء ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها إلى دويلات وعند اشتداد هجمات البيزنطيين عليها .

فمتى نبعت فكرة الوطن القومى عندهم إذن ؟ وما العوامل التى أدت إليها ؟

هذا ماسنذكره بعد ؟







الاسرائيليون فى الشرق ينعمون بالحرية ويمارسون حقوقهم الإنسانية المشروعة ، ولكنهم فى الغرب فى عصر النهضة ، حتى قيام الثورة الفرنسية كان مضيقاً عليهم بعض الشيء لهم أحياؤهم التى تقام عليها الأسوار ويطلق عليها الغيتو Ghetto وكان اليهودى يقترن فى أذهانهم بالمرابى ، ولكن ما أن أعلنت حقوق الإنسان فى الثورة الفرنسية ، حتى طلب اليهود بأن يتحرروا ، وأن تدك أسوارهم كما دكت أسوار الباستيل ، وقد استجيب لهم .

ومنذ ذلك الوقت أخذت شرارات القومية تومض فى سماء أوربا ولعل الدافع لأول لها حرب اليونان مع الأتراك وقدوم المتطوعين من شتى أنحاء أوروبا ليشتركوا فى هذه الحرب وأخذ الشعراء ينفخون فى خدامها مدعين أن اليونان هم حفدة الإغريق الذين كان لهم فضل على المدنية الحديثة .

هذه الروح نبهت بعض الإسرائيليين المتعصبين إلى حلمهم القديم ، والعودة إلى فلسطين .

وأعتقد أن هذا أساس الحركة الصهيونية أو بتعبير أدق ، بلورتها .

وقد رأى هؤلاء الإسرائيليون فى ضعف الدولة العثمانية التى أطلق عليها (الرجل المريض) الظرف الموانى الذى يساعدهم على تحقيق الصهيونية التى تتمثل فى العودة إلى فلسطين ، واستقرار يهود العالم فيها ، وتأسيس دولة يهودية .

واستحثهم على التفكير الجدى فى الوطن القومى لليهود الاضطهادات التي حلت بهم فى روسيا القيصرية منذ عام ١٨٨ فى عهد الإسكندر الثانى وفى أوربا الشرقية وبخاصة رومانيا مما دفعهم إلى الهجرة إلى غرب أوربا وإلى أمريكا بأعداد كبيرة ، أما فلسطين نفسها فلم يهاجر إليها إلا نحو ثلاثة آلاف .

ولكن هل قامت هذه الحركة الصهيونية على أساس من الحق أو المنطق ؟ .

لا شك أن هذه الحركة قامت على الوهم الخالص ، فاليونانيون كانوا يدفعون عن وطنهم دولة غازية ، وكانوا يعيشون على أرضهم المحددة بحدودها المعترف بها من الأمم الأخرى .

أما الإسرائيليون ، فقد تفرقوا عن أرضهم أو بالأحرى عن الأرض التى أقاموا فيها زمنا بعد أن اغتصبوها من أهلها الشرعيين ، وعاشوا فى البلاد التى هاجروا إليها أجيالا طويلة وتعلموا لغتها وشاركوا سكانها السراء والضراء .

ربما يقال إن هؤلاء اليهود المشردين كانوا منطوين على أنفسهم ، وإنهم ظلوا يعانون آلام التشريد والبكاء والنحيب على معبد سليمان ولكن ليس هذا ذنب العالم ، بل ذنبهم هم الذين لم يشاءوا أن ينزعوا عن أنفسهم روح التعصب وأن يطرحوا هذا الانطواء القاسى المرهق وأن يندمجوا فى الشعوب الأخرى وأن يتخلقوا بأخلاقها . لقد ارتفع صوت أحدهم « وهو موسى مندلسون » الذى عاش فى ألمانيا وتأثر بروح الثورة الفرنسية مطالباً اليهود بالخروج من عزلتهم واطراح تعصبهم ، وأن يعلموا أولادهم فى المدارس العامة ، وأن يتكلموا لغة البلاد التى يعيشون فيها ، فقد كانوا فى ألمانيا يتكلمون لغة خاصة بهم تسمى يدش Yiddish وهى لهجة ألمانية تكتب بحروف عبرية ، وتقدم خطوة فى هذا الصدد بأن ترجم العهد القديم إلى اللغة الألمانية ولكن الربانة وقفوا فى طريقه وحرموا على اليهود قراءة هذه الترجمة (١) .

(١) What price Israel by A. M. Liliantal P.II.

وكذلك فإن الأرض التى يريدونها لأنفسهم هى أرض عربية قبل أن يوجد إبراهيم عليه السلام ، ثم أقام فيها العرب بعد الفتح الإسلامى وأخذوا يدافعون عن هذه الأرض المقدسة لديهم الغالية عليهم؛ لأنها ترتبط بذكرياتهم واختلطت بدمائهم مئات السنين، دافعوا عنها ضد الصليبيين وضد التتار والمغول فاية حجة من جانبهم تسوغ لهم طرد ناس من وطنهم والحلول محلهم ! ! .

ولكنها القوة الغاشمة ، قوة الاستعمار التى فتحت صدرها لادعاءات الكتاب الصهيونيين من أمثال «موريس هيس» الذى ألف كتاباً بعنوان «روما أورشليم» «وليو بنسكو» مؤلف كتاب « التحرير الذاتى » ثم «تيودور هرتزل» الذى يعده اليهود أبا الصهيونية فقد ألف كتابا بعنوان (الدولة اليهودية) سنة ١٨٩٥ إثر حركة اضطهاد لليهودية فى فرنسا فيه دعوة صريحة إلى إيجاد هذه الدولة وإن لم يحدد أتكون فى فلسطين أم فى غيرها كالأرجنتين ؟ ثم سعى إلى دعوة مؤتمر صهيونى فى بازل بسويسرا انعقد فى سنة ١٨٩٧ م حيث ذكر للمؤتمرين أن هذا المؤتمر بمثابة حجر الأساس فى قيام الدولة اليهودية .

وقد أقر هذا المؤتمر إنشاء وطن قومى فى فلسطين وإقامة مستعمرات يهودية فيها والسعى الدائب لتنشيط حركة التهجير

وبث روح القومية فى الإسرائيليين وتكوين اتحاد عام من يهود العالم يخدم هذه المصالح بشتى الوسائل .

* * *

ومنذ ذلك الوقت اتخذت الحركة الصهيونية طابعا عمليا ، وسعت إلى تحقيق أهدافها بطرق جميع الأبواب واصطناع شتى المساومات .

وكانت المساومة الأولى مع الدولة العثمانية ، إذ انتهزت الصهيونية ما تعانيه هذه الدولة من أزمات مالية واقتصادية عنيفة ، وحاجتها الملحة إلى المال فعرض « هرتزل » على السلطان عبدالحميد فى مايو سنة ١٩٠١ الموافقة على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وفى مقابل هذه الموافقة أغراه بعرض مبلغ كبير (مليون جنيه استرلينى) بعضه للباب العالى والآخر للمساهمة فى مشروعات التنمية الاقتصادية فى الدولة العثمانية ، ولكن السلطان عبدالحميد الذى احتضن فكرة الجامعة الإسلامية ليدعم حكمه ، رفض ذلك العرض رفضاً قاطعا يشير إليه « هرتزل » نفسه فى مذكراته حين يقول :

« انصحوا — أى الوسطاء — الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة فى هذا الموضوع . إنى لا أستطيع أن أتخلى

عن شبر واحد من الأرض .. فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم إذا مزقت إمبراطوريتى ، فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن .. ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولا فى جثتنا .. فإنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة[1] » .

ولما لم يجد هذا المسعى . حاول هرتزل استمالة أهل فلسطين العرب فأرسل خطابا إلى السيد يوسف ضياء الخالدى النائب فى « مجلس المبعوثان » العثمانى عاد فيه إلى ترديد هذه الشنشنة مرة أخرى ، شنشنة المساعدة المالية والنهوض باقتصاد الدولة العثمانية ، ويشير فى رسالته إلى أن فلسطين الوطن التاريخى لليهود وهى المغالطة الضخمة التى لجأت إليها الحركة الصهيونية لتموه على الرأى العام العالمى وتضلله .

ولم يستطع الصهيونيون أن يظفروا بطائل سواء من الحكومة العثمانية أو ممثلى عرب فلسطين فانتقلت المساومة إلى الألمان ، واستطاع وفد يهودى على رأسه الدكتور هرتزل مقابلة الإمبراطور « غليوم الثانى » وطلب إليه التوسط لدى الحكومة

(١) محاضرات عن قضية فلسطين للأستاذ أحمد الشقيرى ص ٣٤ مخطوط

العثمانية ولكن مستشارى الإمبراطور أشاروا عليه بالتخلص من هذا المازق ؛ لأن الموضوع دقيق وحساس فراغ منهم واعتذر لهم بعبارات لبقة .

وكان الأحرى بحاملى لواء الصهيونية أو عشاق صهيون ، أن يتراجعوا بعد هذا الإخفاق ولكن طبيعتهم الناعمة الماكرة أملت عليهم أن يطرقوا أبواب أخرى علها تمدهم شيئا من مطامعهم ، فاتجهت نحو بريطانيا ، وبما أن بريطانيا لم يكن لها نفوذ على فلسطين فقد عرضت عليهم استيطان العريش وإذا لجنة يهودية تقدم إلى مصر فى مارس سنة ١٩٠٢م وتضع تقريرها بان هذا الموقع حسن ، ويمكن إقامة الوطن القومى اليهودى فيه ، واعلها فعلت ذلك ؛ لتكون على مقربة من فلسطين ، وليمكنها فى المستقبل الوثوب من هذه الأرض المجاورة إلى فلسطين ذاتها ، وفاوض هرتزل ــ الذى كان على رأس اللجنة ــ الحكومة المصرية التى رفضت رفضا قاطعا فعاد ومن معه بخفى حنين .

ثم عرضت الحكومة الإنجليزية على اليهود الإقامة فى «أوغندا» وكاد يحدث هذا لولا أن غلاة الصهيونيين وقفوا ضد هذا الرأى لأن الحركة الصهيونية فى زعمهم تفقد روحها المستمدة من العامل الدينى إذا تحولت عن فلسطين .

ولم يستطع الصهيونيون أن يتقدموا فى سبيل تحقيق خطتهم خطوة واحدة لأن الحكومة العثمانية عندما وقفت على نياتهم الخبيثة راقبت مراقبة شديدة الحدود الفلسطينية ... حتى لا يهاجر إليها اليهود خلسة ، وظلت كذلك حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، وهنا دخلت الحركة الصهيونية مرحلة خطيرة أخرى .





لم يكن من قبيل الصدف أن تبرز إلى الوجود الحركة الصهيونية فى الوقت الذى بدأ فيه الاستعمار يشق طريقه نحو الشرق الأوسط ، فالذى مهد للاستعمار فى مصر هو الصهيونية ، فنحن نعلم أن القروض التى منحت للخديو إسماعيل قدمها إليه بيت روتشيلد اليهودى فى عهد دزرائيلى رئيس الحكومة اليهودى أيضاً ، وقد أدت هذه القروض وما صاحبها من اختلاس إلى إرباك الميزانية المصرية والتدخل الأجنبى فى حكم مصر . فلما قامت الثورة العرابية ـ وهى ثورة مصرية صميمة تهدف إلى غل هذا التدخل ـ قاومتها انجلترا بحجة حماية الخديوى توفيق وعرشه وإن يكن هدفها الأصيل احتلال مصر وقد أيد التاريخ هذا الهدف بما لا يقبل الشك .

وما أن حدث هذا الاحتلال سنة ١٨٨٢ حتى كانت الدعوة إلى إقامة الدولة اليهودية ... لم؟ لأن الوطن العربى بهذا الاحتلال قد عزل عنه الشعب المصرى العربى ، وهو شعب له قوته وخطره عندما تثار القضايا التى تمس العرب من قريب أو بعيد .

وبهذا الاحتلال ، يمكن أن يتسلل اليهود إلى فلسطين وأن يقيموا فيها جماعات ، وقد تحقق هذا فعلا منذ الاحتلال الإنجليزى إذ نزل فى ميناء حيفا مئات من اليهود ، «[1] وانشئت المستعمرات اليهودية الزراعية الأولى وتضاعفت فى السنوات التالية فى ضواحى يافا وحيفا ومنطقة الجليل حتى كان عام ١٨٩٢ م حين عاين الباب العالى الخطر الصهيونى فارتأى منع اليهود من دخول فلسطين» .

بل إنه نزل فلسطين حوالى عام ١٨٨٢ م حوالى ثلاثة آلاف يهودى ، وإن روتشيلد استطاع إقناع الحكومة العثمانية ، بإنشاء مستعمرات زراعية أربع هى : ريشون ليزيون ، وزيخرون يعقوب ، وروشبينا ، وبتاح تكفا ، وأسس شركة بيكا مستهدفا بها شراء الأراضى واستثمارها وجلب اليهود إليها .

ثم فطنت الحكومة العثمانية لخطر الصهيونيين ، فعمدت إلى

---

(١) محاضرات فى تاريخ قضية فلسطين لأحمد طربين ص ١٧ .

مقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وفرضت الحظر على الموانى والحدود الفلسطينية .

وعلى الرغم من هذا المنع ، وهذه الرقابة المشددة فإنه عند قيام الحرب العالمية الأولى كان عدد المستعمرات اليهودية ٥٩ مستعمرة ، ويقدر تعداد اليهود بحوالى اثنى عشر ألف نسمة مما يؤيد وجود هذا التسلل عن طريق التخفى والتحايل — واليهود أساتذة هذا الفن — .

ولكن الصهيونيين كانوا قد عزموا على إنشاء الوطن القومى اليهودى ، وتعجلوا إقامته وإذن فلن يكفيهم هذا التسلل بل لابد من التقدم بخطى أوسع وانتهزوا فرصة نشوب الحرب العالمية الأولى على نطاق واسع وبشكل مدمر فعرضوا خدماتهم على كلا الفريقين المتحاربين نظير مساعدتهم فى إنشاء وطنهم .

أما ألمانيا فقد فاوضوها أو بالأحرى ساوموها سنة ١٩١٦ بأن يعينوها فى الحرب وبخاصة عن طريق التجسس وأنهم يستطيعون أن يجعلوا من فلسطين جبل طارق آخر ، وأنصتت ألمانيا إليهم ، وتوسطت بينهم وبين تركيا ، ولكن الأخيرة أصرت على رفضها بأن عرضت شروطا قاسية بشأن الهجرة وامتلاك الأراضى فلم يقبلوها (١) .

(١) إسرائيل جناية وخيانة تأليف الدكتور سعدى بسيسو ص ٣٢ .

وفى انجلترا تمكن زعيم الصهيونية الدكتور حاييم وايزمان — الذى أسندت إليه الزعامة منذ سنة ١٩٠٤ م — من الاتصال بالمسئولين فى انجلترا وبخاصة بلفور الذى كانت صلته به تعود إلى وقت أن انتخب نائبا عن منشستر التى يقيم فيها وايزمان وبلويد جورج ، وهربرت صمويل اليهودى الذى كان هو الآخر وزيرا ، وأن يبسط أمامهم المطالب الصهيونية فى نوفمبر سنة ١٩١٤م التى تنحصر فى النقاط الأربع التالية : —

١ — العمل على انتصار الحلفاء .

٢ — قيام وصاية بريطانية على فلسطين .

٣ — تسهيل هجرة مليون يهودى فى مدة تتراوح بين عشرين وثلاثين عاما .

٤ — العمل بإخلاص من أجل مصالح بريطانيا ليكون اليهود حراسا على قناة السويس .

ومن جانب آخر ، أخذ هربرت صمويل يبشر بهذه المبادئ الصهيونية بين الوزراء والساسة الكبار ، وأصدر نشرة فى يناير سنة ١٩١٥ عنوانها « مستقبل فلسطين » دعا فيها إلى السماح بهجرة ثلاثة إلى أربعة ملايين يهودى إلى فلسطين ، وأن يكونوا تحت الحماية الإنجليزية .

ولم يقف الحد عند هذين الزعيمين ، بل تعداها إلى المثقفين

المتعصبين من اليهود الذين أخذوا ينشرون أهداف الصهيونية العالمية بين البريطانيين ، فوجدوا منهم أذنا مصغية ، إذ كانت دعوتهم تقوم على إظهار ولائهم لبريطانيا ، وأنه عن طريقهم فقط « يمكن التحكم بقوة فى قناة السويس — الشريان الحيوى للإمبراطورية البريطانية — وأن العرب لا يؤمن جانبهم وبخاصة أن أغلبهم يميلون إلى الألمان .

واشتد ساعد الحركة الصهيونية بعد أن أصبح — لويد جورج — رئيسا للوزارة ؛ إذ كان يعطف عطفا شديدا على أمانى الصهيونيين .

وكلما زاد موقف الحلفاء سوءا ، زاد ضغط الصهيونيين وبخاصة المالى الكبير — اللورد روتشيلد — الذى كان على صلة ببلفور كما يذكر اللورد لويد جورج فى مذكراته ؛ والمال فى ذلك الوقت العصيب له خطره — وهو سلاح رهيب — .

هذا إلى أن سقوط الحكومة القيصرية فى ١٢ مارس سنة ١٩١٧ ، قد أزال عقبة صعبة الاجتياز من طريق الصهيونيين ، فالروس كانوا يحرصون كل الحرص على ألا تدنس الأراضى المقدسة بالعنصر اليهودى ، ويعارضون فى تهويد فلسطين ، فما أن كانت الثورة البلشفية اللادينية حتى تغير الموقف كل التغير ،

وتقلصت حماية أخرى عن العرب الفلسطينيين .

وهكذا أصبح الجو مهيئا لنجاح الحركة الصهيونية ؛ فالحلفاء فى حاجة شديدة إلى العون المالى وإلى تأييد يهود العالم وإلى جر الولايات المتحدة إلى الحرب ، إلى جانب الحلفاء وهى لن تفعل إلا بضغط من يهود أمريكا المتغلغلين فى كل ميدان من ميادينها .

وكان أن بدأت انجلترا رسميا فى ٢ فبراير سنة ١٩١٧ مفاوضة ممثلى اليهود رسميا من أمثال وايزمان وروتشيلد وسوكولوف وصموئيل هربرت وظل الأمر بين أخذ ورد للوصول إلى حل يرضى به الجميع ، وانتهى الأمر بأن قامت وزارة الخارجية البريطانية بإعداد نص وافق عليه الرئيس ويلسون فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ وصدر التصريح المشهور بتصريح « بلفور » على شكل كتاب رسمى فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ موجه من وزير الخارجية البريطانية بلفور إلى اللورد روتشيلد هذا نصه :

« يسرنى جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالى : الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود الصهيونية وقد عرض على الوزارة وأقرته :

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شانه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » .

وكان هذا التصريح هو المستند الوحيد الذى استند إليه اليهود فى إثبات حقهم فى إنشاء وطنهم اليهودى ، وقد كانت مصر أول بلد عربى تلقى هذا التصريح المشئوم ، فاجتمع زعماء العرب فيها وأبدوا استنكارهم له ، ولكن السلطة البريطانية برقابتها الشديدة على الصحف حظرت نشر أى حديث لهؤلاء الزعماء ، وأكدت للشريف حسين أنه ليس فى هذا التصريح ما يضر بحقوق عرب فلسطين .

فهل كان من حق انجلترا أو غيرها أن تصدر مثل هذا التصريح ، فى وقت لم تكن فيه بعد قد انتدبت على فلسطين ؟ وهل كان من حقها أن تحل أزمتها العسكرية على حساب شعب آخر ، لا يمت إليها بصلة من الصلات ؟ وماذا تعنى هذه الوثيقة

فى القانون الدولى إلا أنها قصاصة ورق صادرة من غير ذى شأن فهى باطلة ؟

إن انجلترا أصدرت هذا التصريح لتمكن لاستعمارها مصر ولتحكمها فى قناة السويس وهى قد أصدرته طمعا فى مال اليهود وتأييدهم لها ، فى أن تكون فلسطين تحت وصايتها لا وصاية دولة أخرى أو عدة دول .

بل هى قد أصدرته فى الواقع لترد إلى اليهود — فى شخص روتشيلد — الجميل الذى أسداه إليها بتمكينها من احتلال مصر كما سبق أن ذكرنا فى مقدمة هذا الفصل .

وأعتقد أنها فعلت ذلك أيضاً ؛ لأنها تخشى قوة العرب النامية على الأعوام واستمساكهم بحقهم فى الحرية والاستقلال فإذا لم يتهيأ لها أن تستقر فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية ، فلتصنع لها ركيزة يمكن أن تستخدمها فى وقت الحاجة ، وأن تنفذ منها إلى السيطرة على موارد هذه المنطقة ، وبخاصة عندما ظهر فيها البترول عصب الصناعة فى العصر الحاضر .



عرفنا فيما سبق للحركة الصهيونية التى اتخذت اوروبا ثم أمريكا مسرحا لها ولنشاطها ومساوماتها ، وأنها تركزت فى انجلترا إذ أنها فى ذلك الوقت كانت الدولة ذات النفوذ الأول فى الميدان الدولى ، والدولة ذات المصالح العديدة المتشعبة ، والدولة التى تحتل مصر المجاورة لفلسطين ، والدولة التى كان اليهود فيها قوة حتى بلغوا منصب الوزارة ، بل منصب رئاسة الوزارة (دزرائيلى) .

وفى هذه الفترة كانت الأمة العربية تحت الحكم التركى ، الذى حاول أن يضعضع الكيان العربى والجنسية العربية والقومية العربية ، ورفض فى قسوة أن يسند الوظائف الإدارية ذات الشأن إلى العرب ، بل إنه عندما طالب العرب فى الشام أن يكون لهم نصيب فى الاضطلاع بمسئوليات الحكم فى بلادهم إلى جانب العثمانيين عد ذلك خروجا وثورة ، وأخذ يسجن وينفى ويحكم

بالإعدام على الأحرار المطالبين بحقهم المشروع .

وقد ارتضت تركيا فى إبان الحرب العالمية الأولى أن تدخل إلى جانب ألمانيا أى ضد انجلترا وفرنسا وسائر الحلفاء ، فكان من الطبيعى أن تقف الأمة العربية المطالبة بالتحرر من نير الأتراك إلى جانب الحلفاء : أى الجانب المقابل وبخاصة أن اللورد كتشنر (وقد أصبح وزيرا فى وزارة الحرب البريطانية) أرسل برقية إلى الشريف حسين يذكر فيها : أنه إذا وقف العرب إلى جانب الحلفاء فى هذه الحرب ، فإن الحلفاء على استعداد لتأييد تحرير الشعوب العربية من الحكم التركى وكان أن اجتمع زعماء العرب فى الشام وسطروا مذكرة وافية بمطالبهم وشروطهم . التى على أساسها ينضمون إلى الحلفاء فى حربهم ، وبعثوا بهذه المذكرة إلى الشريف حسين فى مكة ليتحدث على أساسها باسمهم ، فكانت الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين والسير مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر والتى تعرف باسم مراسلات الحسين — مكماهون .

وقد استهلت المذكرة المرفقة بالرسالة الأولى من الشريف حسين بما يأتى :

لما كان العرب بأجمعهم « دون استثناء » — قد قرروا

فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزا بحريتهم المطلقة ، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بأيديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة ، وهى الأمانى المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم .

إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى ، أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبيها او ممثليها على الاقتراحات الأساسية التالية : —

١ — أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين أدنه ، حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا ، يستثنى من ذلك عدن ، التى تبقى كما هى — ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غربا » .

إذن لقد علق العرب دخولهم الحرب على تحريرهم ، وتسلمهم مقاليد الحكم نظريا وعمليا بما لا يقبل اللبس ، أما إغفالها بقية الدول العربية كمصر وليبيا وتونس والجزائرومراكش ؛

فذلك راجع لأن هذه الدول لم تكن تحت الحكم العثمانى بل كان لها وضع خاص .

فماذا كان رد مكماهون نائب جلالة الملك بمصر ؟

كان الرد — أولا سلبيا إذ جاء فيه :

« وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها يظهر أنها سابقة لأوانها » فما كان من الشريف حسين إلا أن رد عليه ردا قاسيا إذ وصف جوابه « بالبرود » و « التردد » وضمنه قوله : « فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد » .

وهو يؤكد فيه وحدة الوطن العربى بقوله « وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا — فى تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب أجنبى ، بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها » .

وإزاء هذا الحزم من جانب الشريف حسين كتب مكماهون :

« إن ولايتى مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه

وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الأقاليم التى تتضمنها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا ، فإنى مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتى : —

١ — إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال فى جميع الأقاليم الداخلة فى الحدود التى يطلبها دولة شريف مكة .

٢ — إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجى ، وتعترف بوجوب منع العدوان عليها .

٣ — وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها ، وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم ... الخ » .

وقد رد الشريف حسين بإخراج ولايتى مرسين وأطنه

من أقسام المملكة العربية ، ولكنه تمسك بولايتى حلب وبيروت وسواحلهما « فهى ولايات عربية محضة ، ولا فرق بين العربى المسيحى والمسلم فإنهما ابنا جد واحد ، ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الإسلامى ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كمعاملتهم لأنفسهم بقوله « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به . »

تبين من هذه المكاتبات التى صدرت بين سنتى ١٩١٥ ، ١٩١٦ م أنه لم يرد ذكر لفلسطين ، وانها من البلاد أو الحدود المختلف عليها ، أما الإختلاف فكان منصبا على لبنان ، والنص الوحيد الذى ورد ذكره خاصا بها فهو « أن بريطانيا تضمن الأماكن المقدسة من كل عدوان ، وتعترف بوجوب منع التعدى عليها » .

ومن المفهوم أن كلمة الشام فى تلك الفترة كانت تطلق على سورية ولبنان وفلسطين وأن هذا التقسيم لم يكن إلا بعد تفتيتها من قبل الاستعمار .

هذا وإن القوات التى حررت فلسطين إنما هى القوات العربية

والخليفة ولم يكن اليهود من بينهم فكان من الطبيعى أن يكافأ العرب وأن تكون بريطانيا عند كلمتها وعهدها .

ولكنها بدلا من ذلك انساقت فى تيار الصهيونية الجارف على ما يروى هربرت صموئيل اليهودى وأول مندوب سام لفلسطين فى الفصل الذى عقده عن « مسألة فلسطين : ١٩١٤ -- ١٩٢٠ » فى كتابه Memoir « ذكرى » الصادر فى سنة ١٩٤٥ قال : « وبحلول شهر أكتوبر سنة ١٩١٧ عندما كان جيش اللنبى يقف أمام مدينة القدس ، كانت الوزارة البريطانية مستعدة للوصول إلى قرار . فبدلا من جعل فلسطين « دولة يهودية » فإن الفكرة كانت تتخذ شكل « وطن قومى يهودى فى فلسطين » وقد وضع مشروع النص على ما أعتقد بخط يد لورد ملنر وأرسل إلى عدد من كبار زعماء الطائفة اليهودية للإعراب عن آرائهم »(١) .

ثم كان وعد بلفور سنة ١٩١٧ على ما سبق ذكره . .

***

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإنها أخذت تفاوض

---

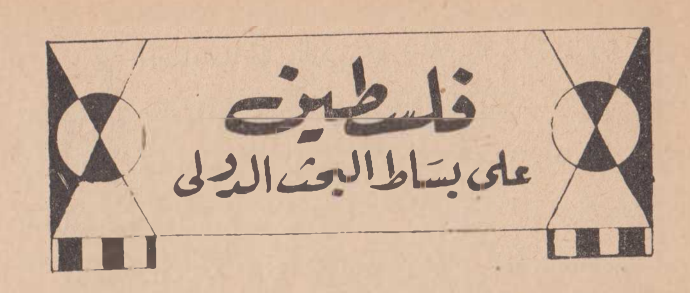
(١) عن الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ص ٩٥ — إعداد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

فرنسا على اقتسام مناطق النفوذ فى البلاد العربية ، وتناست المواثيق التى قطعتها على نفسها للعرب، وكان اتفاق — سايكس — بيكو الذى صدر بين إبريل ومايو سنة ١٩١٦ وقد ورد فيه خاصا بفلسطين :

المادة الثالثة — تنشأ إدارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة .

وقد أحدث افتضاح سر هذا الاتفاق السرى على يد زعماء الثورة البلشفية هزة فى العالم العربى ، كالهزة التى أصابته باعلان تصريح بلفور مما أدى بالحكومة البريطانية إلى المبادرة بتأكيد عهودها الرخيصة التى منحتها من قبل إلى أن انتهى أمرها باحتلال فلسطين وحكمها حكما عسكريا خلال سنتى ١٩١٩ ، ١٩٢٠ م .

ودخلت المسألة الفلسطينية فى دور الصراع الجدى بين العرب والإنجليز المحتلين من ناحية ، وبينهم وبين الصهيونيين المعتدين من ناحية أخرى .



إنعقد مؤتمر الصلح عقب الحرب العالمية الأولى فى باريس فى يناير سنة ١٩١٩ م ، وكان أقطابه الكبار ممثل انجلترا (لويد جورج) وممثل فرنسا (كلمنصو) وممثل الولايات المتحدة الأمريكية (ولسن) وكان من الوفود التى دعيت إلى هذا المؤتمر الوفد العربى وعلى رأسه فيصل ، والوفد الصهيونى وعلى رأسه وايزمان .

وفى الأيام الأولى من انعقاد المؤتمر ، أصدر مجلس الحلفاء الأعلى فى ٣٠ يناير سنة ١٩١٩ م قرارا بفصل الدول العربية عن الدولة العثمانية ، وكان لابد من تقرير مصيرها وتحديد وضعها ، وكانت انجلترا فيما يتعلق بفلسطين قد أصدرت تصريح بلفور المشئوم ، وارتبطت من قبلها للصهيونيين بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ووافق على هذا التصريح الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا .

وهى فى الوقت ذاته كانت متفقـة مع فرنسا بمعاهدة « سايكس — بيكو » أى بتدويل فلسطين ومعنى تدويلها أن تـكون تحت وصاية كل من فرنسا وانجلترا .

وانجلترا فى أعماقها ، تتطلع إلى أن تـكون لها السيطرة المنفردة على فلسطين حتى تتحكم فى القناة وتـكون سيدتها .

ولعلها منحت تصريح بلفور بعد أن وثقت من أن الصهيونيين سيطالبون بأن تـكون هى الوصية على فلسطين ، على أساس أن تخلق لهم دولتهم أو على الأقل تمهد لهم الطريق .

ضغط الصهيونيون فى كل من فرنسا والولايات المتحدة لتـكون انجلترا الوصية أو المنتدبة على فلسطين وكان أن سافر — كلمنصو — إلى انجلترا فى نوفمبر سنة ١٩١٨ م لاقتسام الغنائم فى البلاد العربية واجتمع الرأى فيما بعد على أن يـكون لفرنسا السيطرة على سورية ولانجلترا السيطرة على فلسطين والعراق .

ومما لا جدال فيه أن دعوة الوفد الصهيونى لحضور مؤتمر الصلح ، موافقة ضمنية من الدول الـكبرى واعتراف منها بان للصهيونيين حقا فى فلسطين ، وهذه إحدى جنايات المؤتمر ، أما الوفد العربى فـكان يرأسه فيصل على ما ذكرنا وفيصل

كان صديقا حميما للإنجليز ، وكان مستشاره الداهية الخطير الإنجليزى - لورنس - ، وفيصل كان قد زاره من قبل وايزمان فى العقبة سنة ١٩١٨ م ، وقد استطاع وايزمان بدهائه أن يجر فيصلا إلى توقيع معاهدة فى ٣ يناير سنة ١٩١٩ م فيها اعتراف بتصريح بلفور وإنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتقويتها بمقياس كبير » .

على أن الأمير فيصل قد علق صلاحية هذا الاتفاق ، على نيل العرب استقلالهم « وفقا للمطالب التى تضمنتها مذكرتى إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وإن رفضت هذه المطالب كلها أو بعضها أعتبر نفسى طليقا من كل قيد وأعتبر هذا الاتفاق لاغيا » .

وبما أن مؤتمر الصلح رفض مطالب العرب فقد أصبح الاتفاق لاغيا ، على أن الوفد الصهيونى فى المؤتمر لاشك أنه لعب بهذه الورقة فى أثناء دفاعه عن مطالبه ، وأنها قوت مركزه المزعزع .

حقا إن انجلترا كانت ماضية فى تحقيق خطتها فى تهويد فلسطين ، وإنها كانت مصرة على ذلك إلا أنها كانت تدعم موقفها بكل الوسائل .

ومما يدل على إصرارها أنه بعد استماع أعضاء المؤتمر إلى آراء الطرفين ، عقدت جلسة سرية فى ٢٠ مارس سنة ١٩١٩ م واحتدم

الجدال فيها بين المندوبين الإنجليز والفرنسيين واضطر الأعضاء إلى الموافقة على إيفاد لجنة تحقيق حليفة من أعضاء فرنسيين وبريطانيين وأمريكيين وإيطاليين، تسعى إلى التعرف على رغبات الشعوب العربية في تقرير مصائرها، ولكن انجلترا عمدت إلى عرقلة تكوين هذه اللجنة واضطر ولسن أن يوفد لجنة أمريكية. الغرض منها «الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان والطبقات وعلاقاتهم ليكون الرئيس ولسن والشعب الأمريكي على بينة من الحقائق في كل سياسة يدعى إلى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى، سواء أكان ذلك في مؤتمر الصلح أم في عصبة الأمم».

وقد وصلت هذه اللجنة إلى يافا في ١٠ يونية سنة ١٩١٩ وقدمت تقريرها المحايد في ٢٨ أغسطس سنة ١٩١٩ ومما جاء في هذا التقرير: «لا ينبغي لمؤتمر الصلح أن يتجاهل أن الشعور ضد الصهيونية في فلسطين وسورية بالغ أشده، وليس من السهل الاستخفاف به؛ فإن جميع الموظفين الإنجليز الذين حادثتهم اللجنة يعتقدون أن البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة المسلحة، ويجب ألا تقل هذه القوة عن خمسين ألف جندي وهذا في نفسه برهان واضح على ما في البرنامج الصهيوني من الإجحاف بحقوق غير اليهود.. لابد من الجيوش في بعض

الأحيان لتنفيذالقرارات ، ولكن ليس من المعقول أن تستخدم الجيوش لتنفيذ قرارات جائرة . هذا فضلا عن أن مطالب الصهيونيين الأساسية فى حقهم على فلسطين مبنية على كونهم احتلوها منذ ألفى سنة وهذه دعوة لاتستوجب الاكتراث والاهتمام » .

وختمت تقريرها بقولها : « يجب تحديد المهاجرة اليهودية إلى فلسطين ، والعدول بتاتا عن الخطة التى ترمى إلى جعل فلسطين حكومة يهودية » .

ولا يوجد هناك سبب يمنع ضم فلسطين إلى سورية المتحدة كأقسام البلاد الأخرى ووضع الأماكن المقدسة تحت إدارة لجنه دولية دينية »[1] .

ولكن ماذا صنع بهذا التقرير ؟ لقد ألقى به فى سلة المهملات ، وأخذ الوفد الأمريكى برأى لجنة الشرق الأدنى فى المخابرات الأمريكية المؤيد للصهيونيين ، بل غلاتهم .

كان هذا هو الجو السائد فى مؤتمر الصلح ، الذى سيطرت عليه الصهيونية سيطرة تامة واستطاعت أن تحقق أهدافها بأن تجعل انجلترا حليفتها المنتدبة على فلسطين دون غيرها ، ولندع

(١) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ص ١١٩ ، ص ١٢٠ .

الدكتور وايزمان يكشف لنا السر فى تمسك الصهيونيين بانجلترا إذ يقول فى مذكراته :

« لقد قلت للورد سيسيل إن الذى نريده هو الحماية البريطانية ، واليهود فى العالم كله يثقون ببريطانيا ، ويعلمون أن القانون والنظام سيسودان فى ظل الحكم البريطانى ، وفى ظله أيضاً لن يتدخل أحد فى نشاط اليهود الاستعمارى وتقدمهم الثقافى ، ونستطيع بذلك أن نمد بصرنا إلى الأمام عندما يحين الوقت الذى نصبح فيه من القوة بحيث نطالب بنوع من الاستقلال الذاتى »[1] وتضمن صك الانتداب المصدق عليه فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ م مشروعية مطالبهم والاعتراف بما جاء فى تصريح بلفور ، وتسهيل الهجرة اليهودية وإقامة وكالة يهودية ملائمة (أى دولة داخل دولة) والاعتراف باللغة العبرية لغة رسمية .

فنى صلب ديباجته « ولما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت على أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن تنفيذ التصريح الذى أصدرته فى الأصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية فى اليوم الثانى من شهر (تشرين) الثانى سنة ١٩١٧ ، وأقرته الدول المذكورة لصالح إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ،

(١) المصدر السابق ص ١٠٥ .

على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن فى فلسطين ، أو بالحقوق والوضع السياسى ، مما يتمتع به اليهود فى أية بلاد أخرى .

ولما كان قد اعترف بذلك ، بالصلة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين وبالأسباب التى تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومى فى تلك البلاد ..

وجاء فى مادته الثانية : « تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية ، تضمن إنشاء الوطن القومى اليهودى وفقا لما جاء بيانه فى ديباجة هذا الصك وترقية مؤسسات الحكم الذاتى وتكون مسئولة أيضاً عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن الجنس والدين » .

وفى مادته الرابعة « يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين والتعاون معهـا فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التى قد تؤثر على إنشاء الوطن اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين ، ولتساعد وتشترك فى ترقية البلاد ، على أن يكون ذلك خاضعا دوما لمراقبة الإدارة .

يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة مادامت الدولة المنتدبة ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض ، ويترتب على الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة « فى إنشاء الوطن القومى اليهودى » .

وفى مادته السادسة : « على إدارة فلسطين مع ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالى الأخرى أن تسهل هجرة اليهود فى أحوال ملائمة . وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار إليها فى المادة الرابعة حشد اليهود فى الأراضى الأميرية والأراضى الموات غير المطلوبة للمقاصد العمومية » .

وفى مادته السابعة، « تتولى إدارة فلسطين سن قانون للجنسية ، ويجب أن يشتمل ذلك القانون على نصوص تسهل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود الذين يتخذون فلسطين مقاما دائما لهم » .

* * *

وصك الانتداب هذا قد مزق سورية ، وفصل عنها الجزء الجنوبى على غير إرادة الشعب بل فرضه فرضاً بالقوة

الغاشمة ، وقد فعل ذلك ليقيم هذا الوطن المقحم على وطن كائن منذ ألفى عام .

فعلت الدول الكبرى ذلك فى وقت كانت البلاد العربية مغلوبة على أمرها ، فلم تستطع أن تدافع عن حقها ، وأن تدفع هذا الظلم الذى لم تر له البشرية مثيلا فى أى عهد من العهود .

فعلت وليس للدول العربية صوت يمكنها من أن تدافع عن حقها ، وأن تؤثر فى الرأى العام العالمى وتنوره وسط الدخان الكثيف الذى أطلقه الصهاينة فى كل من أوربا وأمريكا ولكن العرب المكبلين بالقيود لم يرضخوا لهذا الظلم ، وأخذوا يعبرون عن احتجاجهم بالثورة حينا بعد حين .



التهجير أو التهويد

لا شك أن الساسة البريطانيين والأمريكيين كانوا مؤمنين بأن قيام الدولة اليهودية فى فلسطين لا يتأتى إلا بإيجاد أكثرية من اليهود فيها ، حتى إذا أجرى استفتاء لتقرير المصير كان اليهود أغلبية ولما كان يهود فلسطين لا يتجاوزون سنة ١٩١٩ عشر سكان فلسطين من العرب — مسلمين ومسيحيين — فإن الخطة اتجهت نحو تهجير اليهود فى شتى الأقطار إلى هذه البقعة العربية الخالصة .

وقد حانت الفرصة لكى يشجعوا الصهيونيين على أن يبدأوا العمل وأن يمضوا فى هدفهم الكبير وهو تهجير اليهود وترحيلهم إلى فلسطين .

فنى ظل الحكم العسكرى لفلسطين (١٩١٩ — ١٩٢٠) ، وتقييد حرية العرب فتحت الأبواب للمهاجرين اليهود ، وبخاصة بعد أن حضرت إلى فلسطين اللجنة الصهيونية وعلى رأسها وايزمان وقد رحب اللنبى بها كل الترحيب ، ومنحها أقصى

المساعدات وهيأ لها كل سبيل ، فأتاح لها حرية التنقل والإقامة والتحرى وجمع المعلومات ، والاتصال بمن تشاء وفى أى وقت ، ويسر لها سبل العمل لتشجيع الهجرة واستعمار الأراضى .

وقدوم هذه اللجنة الصهيونية إلى فلسطين أثار الحماسة فى نفوس اليهود فيها وآمنوا بأن الدولة اليهودية ستقوم إن عاجلا أو آجلا كما ورد فى تقرير لجنة (كرين) الأمريكية .

وعمد الصهيونيون فى الوقت ذاته إلى طرد كل من يقف فى طريق تحقيق رغباتهم وعملهم الخبيث كما حدث لبعض ضباط جيش الاحتلال المتعدلين .

أما العرب الفلسطينيون فقد ضيق الخناق عليهم وحيل بينهم وبين القيام بأية حركة يعلنون فيها احتجاجهم وإذا فعلوا لم يتعد هذا الاحتجاج حدود فلسطين ، ومن أجل هذه السياسة الجائرة ، تكونت فى كل بلد فى فلسطين جمعيات من المسلمين والمسيحيين لدفع هذا العدوان والمطالبة بوحدة سورية واستنكار تصريح « بلفور » والاحتجاج على تهويد فلسطين .

وقد ثارت اضطرابات فى القدس فى خلال الحكم العسكرى فى ٢٠ إبريل سنة ١٩٢٠ قتل خلالها خمسة من اليهود ، وجرح ٢١١ ومن العرب أربعة وجرح واحد وعشرون وقد ذكرت

لجنة التحقيق العسكرية أن أسباب الاضطرابات ترجع إلى ما يأتى .

١ — خيبة أمل العرب لعدم تنفيذ الوعود باستقلالهم التى منحت لهم أثناء الحرب .

٢ — إنكار تصريح بلفور حق تقرير مصيرهم ، ولأن إنشاء الوطن القومى يعنى الزيادة الهائلة فى الهجرة اليهودية التى ستؤدى إلى سيطرة اليهود السياسية والاقتصادية .

٣ — ازدياد حدة الشعور بسبب الدعاية التى تبث من خارج فلسطين مصحوبة ، بإعلان الأمير فيصل ملكا على سورية التى أعيدت لها وحدتها ، وبنمو فكرة الوحدة العربية والوحدة الإسلامية من ناحية وبسبب نشاط اللجنة الصهيونية مؤيدة بموارد ونفوذ اليهود فى أنحاء العالم من ناحية أخرى [1] .

وقد قمع الجيش البريطانى «الممثل» هذه الاضطرابات بكل عنف حتى يرهب العرب ولا يرتفع لهم صوت . . ولكن أنى له ذلك وناقوس الخطر يدق على الأبواب ! ! ؟ .

* * *

حدث هذا فى فترة الحكم العسكرى الذى لم يرق وجوده للصهيونيين لأنه يعرقل — كما يدعون — جهودهم ويرون أن

(١) المصدر السابق ص ١٢٣ .

تكون الإدارة مدنية حتى يستطيعوا أن يكونوا أكثر حرية .

فلتكن الإدارة مدنية كما يبغون ولكن الشخص المختار ـ ليكون مندوبا ساميا ـ صهيونى عريق هو «هربرت صموئيل» الذى تسلم عمله فى أول يوليو سنة ١٩٢٠ م .

وكان هربرت صموئيل أول يهودى يصل إلى منصب الوزارة فاليهود يزعمون أن دزرائيلى يهودى إذ أن أباه قد عمده وصيره مسيحياً منذ طفولته .

وهربرت صموئيل هو الذى احتضن الفكرة السياسية للصهيونية فى انجلترا وهو الذى دافع عنها فى حرارة حتى وصفه رئيس الوزارة الإنجليزية اسكويت ، بأنه طبعة جديدة من « تانكرد » من أمراء الصليبيين الذى اشتهر بمغامراته فى الشرق ، وعدائه المتأصل للعرب والإسلام ، ومن المفيد أن نورد النص الذى كتبه اسكويت « فى ذكرياته » عن المذكرة التى رفعها إليه هربرت صموئيل وعنوانها « مستقبل فلسطين » .

٢٨ يناير سنة ١٩١٥ .

لقد تلقيت الآن من هربرت صموئيل مذكرة عنوانها « مستقبل فلسطين » ذهب يجادل بها بكثير من التطويل وبعض الحماسة تأييده لضم فلسطين إلى بريطانيا ، البلد الذى فى حجم

« ويلز »، الكثير منه جبال قاحلة و بعضه لاماء فيه . وهو يعتقد أن فى إمكاننا ، أن نقيم فى هذا البلد الذى لايرجى منه الخير الكثير لما يقرب من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوربيين ، وأن هذا العمل سيكون له تأثير طيب على اليهود الذين بقوا خارج فلسطين ، وهذه المذكرة لدى قراءتها تشبه إلى حد كبير طبعة جديدة من « تانكرد » أخرجت للحياة من جديد وإنى أعترف بأن هذا الاقتراح القاضى بإضافة مسئوليات علينا لايستهوينى ، لكنه تفسير غريب لقول دزرائيلى المأثور المحبب إليه « الجنس هو كل شىء »[1] .

هذه هى روح « هربرت صموئيل » واتجاهاته فإذا عين مندوبا سامياً فمعناه أنه همزة الوصل بين عهد الانتداب وبين إقامة الدولة اليهودية .

ومع ذلك فإننا نرى رسالة ملك الإنجليز التى أذيعت على الشعب الفلسطينى فى القدس فى ٧ يوليو سنة ١٩٢٠ تذكر قول الملك « إنى أرغب أن أؤكد لكم أن الدولة المنتدبة ستنفذ ما عليها من الواجبات بدون محاباة مطلقا » .

ويقول أيضا « وإنى واثق أن المندوب السامى ، الذى

---

(١) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين المصدر السابق ص٩٢ .

انتدبته لإنفاذ هذه المبادىء سيفعل بعزم ثابت ونية صادقة وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤول إلى خير واتحاد طبقات الشعب على اختلاف مذاهبه[1] .

واستطاع هربرت صمويل بدهائه أن يبلغ عدد المهاجرين اليهود منذ الاحتلال البريطانى « كما ادعى تشرشل وزير المستعمرات يونيه سنة ١٩٢٢م » خمسة وعشرين ألفا ! أى أن عدد اليهود قفز من خمسة وخمسين ألفا إلى ثمانين ألفا .

وكان يعاونه مجلس مكون من ثلاثة أعضاء ، أحدهم يهودى يدعى « بنتويتش » ومعنى هذا أن الكلمة الفاصلة فى هذا المجلس للصهيونيين ، إذ أن صوت الرئيس يعتبر مرجحا ، وأقام على كل إدارة من الإدارات إنجليزيا أو صهيونيا ، ويرأس كل مقاطعة حاكم إنجليزى ، كما أغرق الدوائر المختلفة بموظفين إنجليز أو يهود .

وأضحى لليهود إدارات سياسية خاصة بهم ، منهم مجمع منتخب لإدارة شئونهم الداخلية ، ومجالس منتخبة فى المدن ، وهيئة تشرف على مدارسهم رئاسة حاخامية ، ومجلس ربانى لإدارة شئونهم الدينية ، ولهم لغتهم العبرية التى أصبحت لغة رسمية ، وصحف

---

(٢) المصدر السابق ص ٩٣ .

عبرية أيضا ، وكفل لهم نشاطهم الاقتصادى فى أوسع نطاق .

ومعنى هـذا : أن اليهود أصبحوا مستقلين استقلالا داخليا ولهم كيان خاص ، أو بمعنى أدق ، أصبحوا دولة داخل دولة .

وبتشجيع الهجرة من الحكومة الإنجليزية ونشاط الصهيونيين فى التهريب والتحايل لإقامة اليهود فى فلسطين ، بلغ عـدد اليهود أربعمائة ألف فى سنة ١٩٣٧ م ارتفعت إلى نصف مليون أو يزيد فى نهاية الحرب العالمية الثانية .

ومن وسائل تحايل الوكالة اليهودية فى التسلل ، إدخال عدد وفير من اليهود كسائحين ثم يستوطنون البلاد من غير أن تتنبه الحكومة إلا إلى عدد قليل منهم ، وفى الأعم الأغلب كانت تتغافل عنهم ، هذا إلى ما كانت تتخذه من وسائل التهريب بالتملص من المراقبة الواقعة على الحدود ، إما بالرشوة أو الإرهاب ، أو التواطؤ مع رجال الحكومة الإنجليزية معهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، ما كان يلجأ إليه الصهيونيون من ، « تزوير شهادات الهجرة وتزييف جوازات السفر ، وتأشيرات القنصلية البريطانية ، وشهادات الزواج والولادة ، واللجوء إلى الزواج الصورى ؛ بقصد إدخال يهوديات إلى فلسطين ،

برغم زواجهن من شبان مقيمين فيها ، كما قد ابتاع اليهود سفنا عديدة صغيرة للتهريب » [1] .

هذه الوسائل الماكرة الخادعة اصطنعها اليهود ليسيروا سيرا حثيثا نحو تغليب العنصر اليهودى بالإضافة إلى ما سمح لهم به من إدخال ١٦٫٠٠٠ يهودى سنويا إلى فلسطين فى عام ١٩٢٠ م .

وقد ذكر المؤرخون : أنه فى سنة ١٩٣٣ هاجر إلى فلسطين أكثر من ٣٠,٠٠٠ من بينهم بعض العلماء والفنيين المشهورين فى أوربا ، ومعهم آلاتهم وأموالهم ووسائل إنتاجهم .

وفى عام ١٩٣٤ هاجر ٤٢٫٠٠٠ يهودى ، وفى العام التالى هاجر ٦٢٫٠٠٠ من يهود ألمانيا ، وقد نجح بن جوريون وأعلن فى هذا العام (١٩٣٥) فى المؤتمر الصهيونى المنعقد فى « لوسرن » بأنه ينبغى تهجير مليون يهودى إلى فلسطين رامياً بذلك إلى أن يصبح اليهود أغلبية متمشيا مع الهدف الصهيونى الكبير .

وقد كانت الهجرة اليهودية تسير مدا وجزرا مع تقلبات الحال الدولية ، فإذا كانت الظروف الدولية فى تحسن صحبها المد ، وإذا تلبدت الغيوم فى سمائها وانعقدت السحب كان الجزر ، ففى خلال نشوب الحرب العالمية مثلا : أظهرت السياسة البريطانية

---

(١) اسرائيل جناية وخيانة ص ٦٨ الطبعة الثالثة .

الحزم مع الصهيونيين ، فرأت فى سنة ١٩٣٩ بأن حصة المهاجرين من اليهود ١٠٫٠٠٠ سنويا خلال مدة الخمس سنوات ، وبعد انقضاء السنوات الخمس لا يسمح بهجرة يهودية أخرى إلا بموافقة عرب فلسطين فما إن صار النصر قريبا ، حتى تراجعت بريطانيا عن هذه التصريحات وكأنها لم تكن ! ! . ولعل تراجعها كان مرده إلى ضغط الحكومة الأمريكية وعلى رأسها « الرئيس ترومان » الذى صرح بوجوب السماح لمائة ألف يهودى فورا بدخول فلسطين مستجيبا لاقتراح زعماء اليهود ، وواقعا تحت تأثير الصهيونيين الأمريكيين وعلى رأسهم « أبا هيلل سيلفر » الذى أصبح رئيسا للفرع الأمريكى للوكالة اليهودية ومستندا إلى أضاليل الدعاية الصهيونية ، والإغراق فيما تعرض له اليهود خلال الحكم النازى ، وقد كان الأحرى به إذا كان إنسانيا ، حقا أن يستخدم نفوذ بلاده العظيم فى تهجير اليهود المشردين إلى أمريكا الجنوبية أو الشمالية ، أو توطينهم فى أوربا بعد منحهم المساعدات والمعونات والدولارات الأمريكية .

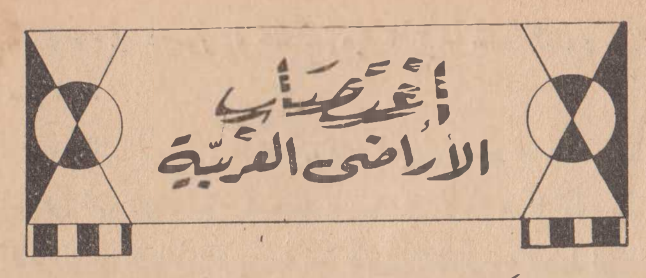
لقد أظهر « المستر بيفن » وزير الخارجية البريطانية آنذاك بعض الحزم وأخذ يتتبع ذلك الأسطول الذى يتألف من ثلاث وستين سفينة تحمل اليهود إلى فلسطين ، فأعاد الأسطول البريطانى سبعا وخمسين

سفينة منها بعضها إلى عرض البحر و بعضها الآخر اقتيد إلى قبرص.

وإزاء الضغط المستمر من جانب الولايات المتحدة ذات القوة والجبروت، وذات اليد الطولى على انجلترا، أو قل: الحليفة القوية لبريطانيا أشار « بيفن » بتكوين لجنة بريطانية أمريكية؛ لدرس مشكلة فلسطين على ضوء المعلومات التى تجمعها اللجنة عن حال اليهود المشردين فى أوروبا.

وقد أوصت هذه اللجنة أو أخذت باقتراح « ترومان » بإدخال مائة ألف يهودى إلى فلسطين فورا، ولكن الجامعة العربية ثارت على تقريرها واحتجت لدى الحكومتين فكان أن عقد مؤتمر فى لندن انفض فى سنة ١٩٤٧ بدون جدوى.

وفى الوقت ذاته عرض « بيفن » على « بن جوريون » مشروعا يقضى بأن يكون لبريطانيا الوصاية على فلسطين وإباحة الهجرة لـ ٩٦٫٠٠٠ يهودى خلال السنتين الأوليين، وإقامة دولة مستقلة فى نهاية السنوات الخمس تشمل العرب واليهود على أن يحل العرب واليهود فيما بينهما مسألة الهجرة. ولكن « بن جوريون » رفض هذا المشروع فلم يجد بيفن مناصا من ان يقرر عرض المسألة على الأمم المتحدة وقد كان.



لقد كان نص المادة السادسة الوارد فى صك الانتداب ، الذى وافقت عليه عصبة الأمم الخاص بفلسطين :

وأتينا عليه من قبل ، يقضى بألا يتخذ إجراء من شأنه إجلاء العرب عن أرضهم أو تعطلهم بإحلال اليهود محلهم فى فلاحة الأرض ، ولكن ما حدث كان على النقيض من ذلك فإن الجمعيات التى تكونت فى فلسطين الخاصة ، بشراء الأراضى ومنها جمعيات « الكارن كيمث » و « الكارن هيسود » و « شركة إعمار الأراضى الفلسطينية » كانت تنص فى عقود تاجير أراضيها لليهود بأن « يتعهد المستأجر بأن يجرى جميع الأشغال المختصة بفلاحة الأرض وزراعتها بواسطة عمال من اليهود وإذا خالف المستأجر هذا الشرط فإنه يدفع عشرة جنيهات فلسطينية عن كل مخالفة ويعتبر استخدام عمال من غير اليهود دليلا قاطعاً على الإخلال بهذا العقد » أى أنه يفسخ فى حال استخدام عمال من العرب .

وجاء فى دستور الوكالة اليهودية تأكيداً لهذه العقود حيث نص فيه :

« تملك الأراضى كملك لليهود وتسجل باسم صندوق المال القومى اليهودى وتبقى مسجلة باسمه إلى الأبد ، كما تظل هذه الأملاك ملكا للأمة اليهودية غير قابل للانتقال ، وتنشط الوكالة الاستثمار الزراعى بواسطة العامل اليهودى ، والمبدأ العام الذى يتبع فى جميع الأشغال والمشاريع التى تقوم بها الوكالة وتنشطها هو استخدام اليهود » .

وقد طبق هذا النص تطبيقا دقيقاً صارماً فى كل المستعمرات اليهودية التى كانت ، والمستعمرات التى باعتها الحكومة لهم ، والمستعمرات التى ابتيعت من العرب السوريين واللبنانيين ، ومنها مرج بن عامر الواسع الأرجاء ووادى الحوارث ووادى القبانى وعدد من قرى حيفا وبيسان وصفد وطبريا ويافا ، وكذلك الأرض التى اشتريت من الفلسطينيين العرب تحت ضغط الحاجة — إذ كان الفلاح العربى أو المالك الصغير يئن تحت وطاه الضرائب الباهظة التى فرضتها حكومة الانتداب — وتقدر بنصف مليون دونم على حين أن الأرض التى اشتريت من السوريين واللبنانيين تبلغ ٨٠٠ر٠٠٠ دونم أما مجموع ما كان يملكه اليهود حتى عام

١٩٤٨ م فقد كان مليونى دونم من سبعة ملايين مجموع الأراضى الزراعية الفلسطينية .

هذه الإجراءات التى اتخذها اليهود — وتدل بصورة قاطعة على نياتهم الخبيثة ؛ لتملك فلسطين — قد أدت باللجان التى كانت توفدها الحكومة البريطانية إثر الاضطرابات العنيفة من جانب السكان العرب ، أن توصى بوضع حد « لوقف إجلاء المزارعين الفلاحين عن الأراضى التى يزرعونها » كما فعلت لجنة « شو فى سنة ١٩٣٠ » .

وقد نص الكتاب الأبيض الذى أصدرته حكومة الانتداب فى سنة ١٩٣٠ م على هذه الإجراءات التعسفية ، ووازن بينها وبين ما كانت تقوم به جمعية الاستعمار اليهودى فى فلسطين (المعروفة عموما بالبيكا) ، وبين أهل هذه المستعمرات ، وبين جيرانهم العرب ، وذكر أيضاً أن سياسة إجلاء العرب المزارعين عن المزارع التي يعملون فيها تخالف كل المخالفة للتصريح الذى أذاعه المؤتمر الصهيونى المنعقد فى سنة ١٩٢١م ، من أن « الشعب اليهودى يرغب فى أن يعيش مع الشعب العربى بصلات صداقة واحترام متبادلين ، وأن يعمل بالاشتراك مع الشعب

العربى على ترقية البلاد المشتركة بينهما بحيث تؤمن رفاهية كلا الشعبين » .

وأنه قد أصبح نتيجة لسياسة الغصب أن أضحى فى فلسطين من غير أرض نحو ٢٩,٤٪ من مجموع العائلات العربية القروية وتبلغ ٨٦٩٨٠ .

وأوصت اللجنة الملكية الموفدة إلى فلسطين فى ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ م ؛ بأنه « ينبغى اتخاذ أقصى ما يمكن من الحيطة ؛ لتامين حفظ حقوق المستأجرين والمزارعين العرب فى حالة وقوع بيوع أراض أخرى ، وعلى ذلك يجب ألا يسمح بانتقال الأراضى إلى اليهود إلا حينما يمكن استبدال الزراعة الواسعة بالزراعة الكثيفة » .

على أن توصيات اللجان كانت مدادا على ورق ؛ إذ كان يفسدها، إما الصهيونيون وإما تغافل حكومة الانتداب. ففى فبراير سنة ١٩٤٠ م تلقى — سير هارولد ماك ميكل المعتمد البريطانى فى فلسطين — تعليمات من لندن تقضى بأن يخول لليهود حق شراء الأراضى فى مناطق المدن وفى ضواحى حيفا ، وقسم من الشريط الساحلى فحسب مما أثار ثائرة بن جوريون وصرح على أثر ذلك بأن قصر اليهود على سكنى المدن قضاء على أمانى اليهود

وأن اليهود لن يسمحوا بتحويل الوطن القومى إلى غيتو .

وقد ضربت الوكالة اليهودية وعصاباتها المسلحة بهذه التعليمات عرض الحائط ، وأخذت تقوم بشراء الأراضى سرًّا كالهجرة سواء بسواء ، وتتحدى القانون والرقابة سرا وعلانية ، حتى تمكنت من التوسع ، ومن دفع العرب العاملين فى أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم فقاسوا مرارة التعطل وذاقوا غصص الحرمان .



الكفاح
من أجل التحرير والوحدة

عرفنا فيما سبق أن العلاقات بين العرب واليهود فى فلسطين قبل تصريح « بلفور المشئوم » كانت طيبة ، فما إن كان هذا التصريح ، حتى عرف العرب ما يبيته لهم الصهيونيون الأوربيون والأمريكيون ، يساندهم الاستعمار الغربى ، فأخذت مراجل صدورهم تغلى ، وأضحوا فى حالة نفسية متوترة لأنهم يريدون أن يظلوا فى أرضهم التى عاشوا فيها وعاش من قبلهم آباؤهم وأجدادهم منذ ٣٥٠٠ ق . م . ، وهى الأرض التى تحتضنهم وتؤويهم ومصدر حياتهم ، وتتعلق بها ذكرياتهم وأصولهم ، وفيها المسجد الأقصى الذى أسرى إليه نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وهم يودون أن يظلوا كما كانوا فى وحدة مع إخوتهم فى العروبة السوريين ، وأن هذا الفصل الذى أريد لهم لم يعرفوه من قبل ، وإنما الغرض منه التمكين لبنى إسرائيل وتشريدهم فى الأرض .

كما أنهم قد أدركوا أن انتداب بريطانيا أو غيرها إنما مرده إلى غل أيديهم وبسط النفوذ الاستعماري ؛ ليطلق يد الصهيونيين ، ويمضى فى سياسة تهويد فلسطين ، وتحقيق أهداف الإسرائيليين فى إقامة وطن قومى لهم .

ومن أجل ذلك رفضوا كل تسوية من شأنها الانتقاص من هذين الأمرين الحيويين بالنسبة إليهم .

ولا شك أنهم كانوا على حق فى هذا التوجس وذلك الإدراك ، فقد أثبتت الأعوام الثلاثون التى تلت تصريح « بلفور » ما بيته لهم الاستعمار والصهيونية متحالفين .

وكان عليهم ألا يسكتوا على هذا الحيف الذى نزل بهم وأن يقاوموا بكل قوة وشجاعة وعزم هذا الخطر الذى يحدق بوطنهم .

وهذا ما فعلوه على الرغم من أن الدول الكبرى وفى طليعتها انجلترا والولايات المتحدة « وقد كانتا من القوة بمكان كبير بالإضافة إلى قوة اليهود فى العالم » اجتمعت عليهم وحاربتهم بكل سلاح .

وعلى الرغم من أن الدول العربية الأخرى كانت فى قبضة الاستعمار ومحتلة بجيوش الحلفاء ، وكذلك كانت الدول الإسلامية ؛ وعلى الرغم أيضا من أن الزعماء العرب وقعوا تحت سطوة الاستعمار أو الصهيونية أو نير النزعات الانفعالية أو العصبية الجاهلية .

فما إن أصدر مجلس الحلفاء الأعلى « فى سان ريمو » قراره بانتداب بريطانيا على فلسطين فى ٢٠ إبريل سنة ١٩٢٠ ، حتى كانت ثورة عربية فى القدس قتل فيها خمسة من اليهود وجرح ٢١١ ، ومن العرب استشهد أربعة وجرح ٢١ . وأطفأ الثورة ـ المشتعلة المتأججة بسعير الغضب والدفاع عن الوطن ـ قوات الاحتلال البريطانى يساندها الإرهابيون اليهود من أمثال « جابوتنسكى » .

ولما رأى العرب أن الحكومة البريطانية المنتدبة ماضية فى التمهيد للوطن القومى اليهودى ، ومنح اللجنة الصهيونية امتيازات عديدة ، ونفوذا واسعا فى الإدارة حتى أضحت حكومة ، داخل حكومة وحابت اليهود بإعطائهم وظائف عامة أكثر بكثير من نسبتهم ، وأن الإسرائيليين قد أطغتهم الفرحة بقرب قيام الدولة اليهودية فتعالوا على العرب واحتقروا عاداتهم وأخذوا يسخرون منهم ويتحدونهم كما أشارت إلى ذلك اللجنة « هيكرافت » ؛ لما رأى العرب ذلك : أعلنوا الثورة فى أول مايو سنة ١٩٢١ التى دامت أياما عدة وشملت يافا وقضاءها بأسره وهاجم العرب خمس مستعمرات يهودية أسفرت عن قتل ٤٧ يهوديا وجرح ١٤٦ ، فما كان من الجيش البريطانى إلا أن أخذ فى إخماد هذه الثورة بكل قسوة حتى استشهد من العرب ٤٨ وجرح ٧٣ .

ثم طرأ على الموقف هدوء نسبى ، نظراً لظهور انقسامات فى صفوف العرب الفلسطينيين من جراء التفرقة التى أحدثها المستعمر كما هى طبيعته ضاربا الأسر بعضها ببعض كاسرتى الحسينى والنشاشيبى ؛ للظفر بمنصبى رئاسة الإفتاء والمجلس الإسلامى ؛ وكذلك لخفة وطأة الصهيونية .

وقد ظل هذا الهدوء أو الانشغال عن المطلب الأسمى للقضية الفلسطينية ـ المتمثل فى التحرر والوحدة ـ قائما ، حتى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٩ م ، حيث شبت ثورة عارمة ، استمرت مايقرب من أسبوعين قتل فيها مايزيد على مائتى قتيل وستمائة جريح معظمهم من اليهود ، وكان سببها المباشر تحدى اليهود لشعور المسلمين بمحاولتهم الاستيلاء على الحائط الغربى للمسجد الأقصى مدعين أنه أثر باق من معبد سليمان ، وتظاهرهم فى ١٥ أغسطس أمام المسجد الأقصى حيث رفعوا العلم اليهودى وهتفوا « الحائط حائطنا » ، وأخذوا ينشدون النشيد اليهودى « هاتيكفا » ثم اخترقوا بعض الأحياء العربية هاتفين متحدين شعور العرب ، الأمر الذى أدى إلى نشوب الثورة فى يوم الجمعة بعد أداء فريضة الصلاة ، والهجوم على اليهود ، وحدثت مظاهرات مماثلة وإن تكن أقل عنفا فى نابلس والخليل .

وقد عمدت فرق الأمن الإنجليزية إلى الاستعانة بالإرهابيين اليهود ، ووزعت عليهم الأسلحة ؛ مما أثار ثائرة العرب وبدا التحيز واضحا من جانب السلطات البريطانية .

وعلى أثر هذه الثورة العنيفة ، أوفدت الحكومة البريطانية لجنة برئاسة القاضي شو وعضوية ثلاثة من أعضاء مجلس العموم للتحقيق فى دوافع هذه الثورة ؛ وقد ردتها إلى الأسباب العامة من قلق العرب على مستقبلهم ؛ واشتداد ساعد الصهيونية ؛ والتصريحات الخطيرة من جانب الصهيونيين بشأن الهجرة على نطاق واسع ، وتملك الأراضى بشكل يتهدد كيان ووجود العرب ، الأغلبية الساحقة فى الوطن الفلسطينى ، ثم تطرقت إلى السبب المباشر الذى أتينا عليه من قبل ، وأيدت اللجنة العرب فى وجهة نظرهم من ناحية تضخم المهاجرين ، واتساع الأراضى التى أصبحت فى حوزة اليهود ، وكذلك أيد وجهة نظرهم الخبير « سمبسون » الذى أوفدته الحكومة البريطانية فى مايو سنة ١٩٣٠ لدرس مسائل الهجرة والإسكان والتنمية الزراعية .

ثم صدر الكتاب الأبيض على أساس هذا التقرير بتأييد وجهة النظر العربية إلى حد ما ، ولكن صدوره أثار ثائرة

اليهود ! ! الذين أحدثوا ضجة عالمية ، فما كان من الحكومة البريطانية إلا أن تراجعت فى موقفها ، وأرسل « مكدونالد » رئيس الوزارة كتابا إلى وايزمن يبدى فيه تراجع الحكومة عن التوصيات التى وردت فى هذا الكتاب ، مما أغضب العرب أصحاب الحق الشرعى .

ومما زاد فى غضبهم ازدياد الهجرة من ألمانيا وأوربا الشرقية بعد أن استلم النازى زمام الحكم فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ ، فقد وصلت الهجرة فى عام ١٩٣٤ إلى ٤٠ ألفا ثم إلى ٦٢ ألفا فى العام التالى .

وظهرت بوادر هذا الغضب فى المظاهرة الكبرى التى حدثت فى القدس بعد صلاة الجمعة (١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٣) ! ! وأسفرت عن جرح ٣٥ من المتظاهرين ، و ٥ من رجال الأمن ، (وظاهرت السيدات الرجال فى إبداء الشعور) وفى المظاهرة التالية فى يافا فى ٢٧ أكتوبر استشهد ثلاثون وجرح كثيرون وقد اشترك فيها وفود من عمان ودمشق .

وفى عام ١٩٣٥ ظهرت جمعية سرية كونها بعض المجاهدين العرب على رأسهم البطل الشيخ عز الدين القسام السورى ، وهو من رجال الدين المشهورين .

وقد نذر هؤلاء أنفسهم للدفاع عن وطنهم ضد غاصبيه ومحتله ، وقامت هذه الجمعية بأعمال باهرة فيها تحد للسلطة ، وزادت تحديها بالإعلان عن نفسها ولكن هذه الجماعة المناضلة اشتبكت مع القوات البريطانية قرب قرية (يعبد) من قرى حنين فاستشهد رئيسها العظيم وأربعة من زملائه ، وقتل جندى بريطانى وجرح اثنان فى نوفمبر ١٩٣٥ ، وإنى أعتقد أن عرب فلسطين لو أنهم مضوا منذ وقت فى تكوين العصابات السرية على نطاق واسع ، لأقضوا بها مضاجع البريطانيين واليهود على السواء كما فعلت العصابات الإجرامية الصهيونية وكتب لفلسطين تاريخ غير هذا التاريخ . حقا إن السلطات البريطانية وجواسيس الصهيونية كانت للعرب بالمرصاد لتعوق نشاطهم ولكنى أومن بأن العرب على الرغم من ذلك كانوا يستطيعون أن يكونوا هذه الجمعيات على غرار جمعية القسام كما فعلوا ، وأن يقضوا على فكرة الوطن الصهيونى إلى الأبد .

أقول هذا وأنا فى صدد الحديث عن جمعية القسام الشهيد البطل الذى هداه فكره الصائب إلى إعلان الجهاد ضد الغاصبين فى شكل حرب عصابات ولو أدى ذلك إلى الاستشهاد .

* * *

لم يذهب استشهاد البطل القسام سدى ، بل إنه كان حافزا قويا لنشوب الثورة الكبرى ثورة سنة ١٩٣٦ م ، لقد ألهب شعور العرب فى كل مكان ، وبخاصة فى فلسطين .

ومما زاد النفوس غليانا أن الثورة اجتاحت مصر وسورية مطالبة بالتحرر والاستقلال ، واستجابة الاحتلال لهما والدخول معهما فى مفاوضات ، ثم زيادة هجرة اليهود الفارين من « ألمانيا وبولونيا » زيادة كبرى والشك فى نيات حكومة الانتداب والاعتقاد بأنها ضالعة مع اليهود وأنها ماضية فى دعم الوطن القومى لليهود .

لقد كانت هذه الثورة على خلاف الثورات السابقة ؛ إذ كانت طويلة الأجل فقد ظلت ستة أشهر (إبريل سنة ١٩٣٦ — ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦) ، وزاد فيها عدد الضحايا ، فقد استشهد من العرب أكثر من ألف ثائر بعد أن قاموا بألوان من البطولة والجرأة ، فأتلفوا كثيرا من أشجار بساتين اليهود وأشعلوا الحرائق فى مستعمراتهم وقتلوا وجرحوا كثيرا من قوات الجيش والبوليس اليهودى .

وكانت ثورة مسلحة بل منظمة عندما انضم إليهم القائد فوزى القاوقجى على رأس خمسمائة مجاهد ، واستطاعت أن توقع

الاضطراب فى صفوف القوات البريطانية المعززة حتى بلغت خمسين ألفا ، وأن تثير الفزع فى نفوس الصهيونيين ، ومن القواد البريطانيين الذين أوفدوا لقمع الثورة « ديل وويفل » ولكن حكومة الانتداب بقواتها وعصابات اليهود المسلحة عجزت عن أن تخمد الإيمان المتأجج فى صدر خمسة آلاف مجاهد فحسب ، ولم يعلن وقف الإضراب وانسحاب المجاهدين الذين وفدوا من البلاد العربية الأخرى إلا بعد أن أصدر ملوك العرب ابن السعود وغازى وعبد الله « بناء على برقية انجلترا » نداء بوقف الاضراب والإخلاد إلى السكينة ، لماذا ؟ « اعتمادا على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل » واستجابت اللجنة العربية العليا لهذا النداء .

وكان الأحرى بهؤلاء الملوك العرب أن يغذوا هذه الحركة الثورية الرائعة ! ! سرا لا علانية بالمال والسلاح والرجال ، والضغط على انجلترا والولايات المتحدة لحل مشكلة فلسطين حلا عادلا كما فعل زعماء الصهيونية فى البلاد الأوربية والأمريكية الذين آزروا ثوارهم ورصدوا لهم الأموال الضخمة ، وزودوهم بالأسلحة والعتاد ، وفى الوقت ذاته أخذوا يشددون النكير على

انجلترا المنتدبة كلما بدت منها بادرة يشتم منها تحيف من قريب أو بعيد للأهداف الصهيونية .

* * *

وأيا ما كان الأمر ، فقد توقفت الثورة ، وكان أن أرسلت انجلترا لجنة برئاسة « اللورد بيل » وإذا بهذه اللجنة توصى بتقسيم فلسطين ، وهذه هى عدالة بريطانيا وحسن نياتها كما زعم ملوكنا العرب .

لقد أوفدت هذه اللجنة إلى فلسطين واعتزمت اللجنة العربية العليا مقاطعتها ولكن ملوكنا وجهوا إليها نداء جاء فيه :

« بالنظر لما نحسه من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية فى إنصاف العرب فقد رأينا أن المصلحة تقضى بالاتصال باللجنة الملكية والإدلاء بمطالبكم العادلة إليها » .

وقد كان نتيجة الاتصال مشروع التقسيم الذى يقضى بقسم للعرب وآخر لليهود وثالث للإنجليز !!!!

ثار الشعب العربى على تقرير هذه اللجنة الذى نشر فى ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ ، واندلعت الثورة بأعنف وأقوى ضرام وظلت مشبوبة من خريف ١٩٣٧ حتى صيف ١٩٤٠ م لقد

أضحت فلسطين بركانا ثائراً ؛ العرب فى جانب والبريطانيون واليهود فى جانب آخر ، وناضل العرب نضالا سيظل يذكره لهم التاريخ فقد كانوا «على قلتهم وضآلة ما بيدهم من الأسلحة» يواجهون قوات الإمبراطورية البريطانية المسلحة بالدبابات والطيارات والمدافع ويقاتلون العصابات الإرهابية الإجرامية الصهيونية المزودة بأحدث الأسلحة .

قاتلوا من غير أن يرهبوا الاستشهاد أو النفى !! أو الإعدام أو السجن أو الاعتقال !! أو المصادرة لأملاكهم أو نسف دورهم وحوانيتهم ، أو التعذيب بكى الأجسام وتقليع الأظفار ونهش لحوم الأحرار ، وحاربوا فى ظل ظروف قاسية إذ حرم على العرب إحراز السلاح أو حمله أو التدريب عليه ، واستبسلوا وقاوموا الصهيونيـة العالمية بأموالهـا ونفوذهـا وسلاحها ومؤامراتها وشباك جاسوسيتها ويقدر عـدد الذين اشتركوا فى هذه الثورة التى هى فى الواقع ثورات ممتدة بثلاثين ألفاً استشهد منهم ثلاثة آلاف وجرح سبعة آلاف وكانت التضحيات من جانب المواطنين العرب الفلسطينيين جسيمة !!

(*) اسرائيل جناية وخيانة تأليف سعدى بسيسو ص ١١٣ الطبعة الثالثة .

ولكن كلها تهون فى سبيل الدفاع عن الحرية و لوطن والأرض .

وإذا كانت تضحيات العرب جسيمة ، فإن التضحيات من الجانب الآخر أكثر جسامة ، فقد قتل فى هذه المعارك العنيفة من البريطانيين ٦٠٠ ومن اليهود ١٥٠٠ وإن خسائر اليهود لا تقل عن مليونى جنيه ، والبريطانيين لا تقل عن خمسة عشر مليونا [١] .

وقد أثمرت هذه الثورة العنيفة ثمرتها بالإضافة إلى ضغط الحكومات العربية وشعوبها فقررت الحكومة البريطانية العدول عن التقسيم وأصدرت بيانا رسميا فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ تراجعت فيه عن مشروع التقسيم فى ضوء تقرير لجنة «وودهيد» وأعلنت عن عزمها على إيجاد حل جديد تستوحيه من المباحث التى ستجريها مع ممثلى كل من العرب واليهود ، ودعت إلى مؤتمر فى لندن يشترك فيه ممثلو عرب فلسطين والدول العربية . عقد الاجتماع الأول له فى ٧ فبراير ١٩٣٩ وقد اتفق مبدئيا فى البلاغ الذى أصدرته الحكومة البريطانية بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٩٣٩م على قيام دولة واحدة يحتفظ العرب فيها بأكثرية الثلثين تمنح

---

(١) الوحدة العربية لمحمد عزة دروزة ص ٤٩٥ .

استقلالها بعد عشر سنوات وعلى تحديد انتقال ملكية الأراضى وتحديد الهجرة ثم منعها .

ولكن هذا الحل لم يكتب له التوفيق ؛ فقد جمدته بريطانيا كما هو العهد بها دائما عندما تقترح حلا يكون فى صالح العرب بعض الشيء تحت ضغط الصهيونية التى ثارت على إصدار هذه الوثيقة وساعد على هذا التجميد عدم موافقة لجنة الوصاية الدائمة التى كانت منعقدة فى جنيف بأغلبية أربعة أصوات ضد ثلاثة ثم نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ .

وكانت هذه الحرب الفرصة الذهبية للصهيونيين الذين اغتنموها ليساوموا على إقامة إسرائيل ، وفى الوقت ذاته نشطوا فى شراء الأسلحة من أمريكا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وإيطاليا وبخاصة فى نهاية هذه الحرب ، واستولوا على بعض أسلحة الجيش البريطانى المحتل لفلسطين على حين أن هذه الدول امتنعت عن تزويد الدول العربية بأية أسلحة وفرضت عليها حصارا عسكريا .

وعلى الرغم من كل أولئك فقد كافح المجاهدون العرب بعد موافقة الأمم المتحدة على قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وانتصروا فى ميادين كثيرة على الإرهابيين اليهود وأوشكوا أن يحققوا هدفهم الأكبر لولا أساليب الغدر التى اصطنعتها الصهيونية متحالفة مع الاستعمار .

أساليب اليهود في احتلال فلسطين

وتحدثنا من قبل على الروح البربرية التى سرت فى دماء الاسرائيليين الأولين ، وكيف أنهم كانوا يلجأون دائما إلى وسائل التقتيل والتذبيح والإبادة إذا ما فتحوا بلدا أو دخلوا أرضا ، وقد صاحبتهم هذه الروح فى كل أطوار حياتهم ، فقد كان لهم ضلع كبير فى تحطيم العهد القيصرى فى روسيا ، وإثارة الفوضى والاضطراب وإسالة الدماء فى أثناء الثورة البلشفية انتقاما من القيصرية التى اعترضت طريقهم فى تملك فلسطين ، وبخاصة هذه الجمعية التى أطلق عليها « عشاق صهيون » .

وكان لهم يد فى المذبحة الهائلة التى جرت فى فرنسا عقب قيام الثورة الفرنسية لتسود المساواة بينهم وبين الفرنسيين .

بل كان لهم إصبع فى تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم فى تشيكوسلوفاكيا فى ٢٥ نوفمبر ١٩٥٢ ، وثبت فيها اشتراك

حزب « المابای الاسرائیلی » بعد ان أذيعت محاكمات « براغ » واعترف فيها المتهمون باشتراك الاسرائيليين ، وأعضاء من المنظمة الصهيونية العالمية ، وكبار الماليين ، حدث هذا من الاسرائيليين الذين أعانتهم تشيكوسلوفاكيا بالأسلحة والاتجار معهم والاسراع بالاعتراف بدولتهم ولكن لا غرابة فى هذا الأمر فتلك طبيعتهم التى لن تزايلهم .

وكذلك ظهر فيما بعد أنهم حاولوا اغتيال زعماء الروس على يد بعض أطبائهم فى الاتحاد السوفيتى ، ولم تنس لهم حكومته هذه المؤامرات التى يحيكونها مع الاستعمار الغربى ليصلوا إلى مآربهم الخبيثة .

والحق أن كل مؤامرة عالمية يكونون من ورائها ومدبريها ، فعلى العالم أن يردد هذه العبارة كلما حدث انقلاب « فتش عن الصهيونية » .

وإذن فالصهيونيون أساتذة الاغتيال فى العالم ، وإذا كانت هذه طبيعتهم فلا شك أنهم نفذوها بكل دقة وإحكام ، ووحشية فى احتلالهم لفلسطين العربية .

إن هؤلاء الصهيونيين استغلوا اضطهاد اليهود على يد النازيين فهولوا فية وأخذوا يذرفون دموع التماسيح ،وبخاصة فى الولايات

المتحدة واستغلوا سيطرتهم على دوائر الاقتصادوالنشر ، وتغلغل الصهيونية فى دوائر الحكومات والشركات ، وجمع التبرعات والمساعدات المالية ، بحجة إقامة الجامعة العبرية فى القدس حيناً أو بحجة إيواء اللاجئين وهجرتهم ، أو إيجاد موارد لهم فى فلسطين حينا آخر ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يجمعون هذه التبرعات الطائلة لشراء صفقات الأسلحة ، ولاسيما بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، إذ سافر بن جوريون ومعه المهندس « حايم سلافين » و « ودوسترونسكى » قائد عمليات الهاجاناه إلى نيويورك ، حيث اتصلوا بالمهربين تجار الأسلحة واستطاع « سلافين » ـ الذى أمضى ثمانية عشر شهرا هناك بتأييد الحكومة الأمريكية والصهيونية العالمية ـ شراء أسلحة وعتاد حرب تقدر قيمتها بملايين الدولارات ، لم يدفع منها إلا ٨٠٠ر٠٠٠ دولار ، وقد هربت هذه الأسلحة إلى فلسطين ، وتسلمتها العصابات الإرهابية هناك ، ومما لاشك فيه أن حكومة الانتداب كانت على علم بهذه الأسلحة ، ولكنها تغاضت عن إفشاء سرها أو مصادرتها ، إما بسبب الرشوة أو بسبب تحالفها مع الصهيونيين .

وكذلك استطاعت المراكز السرية المنتشرة فى أوربا عقد

صفقات أسلحة كان من بينها الطائرات والمدافع الثقيلة والقنابل والبنادق ، وأغلبها من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، هرب بعضها إلى فلسطين والآخر حجز إلى أن يطلب فى الوقت المناسب ، وهو وقت إعلان دولة إسرائيل من جانب اليهود .

ولا شك أيضا فى أن الصهيونيين - بوسائلهم غير المشرفة - قد تمكنوا من سرقة أو شراء بعض الأسلحة التى كانت تحت يد جيش الاحتلال .

* * *

وكانت حكومة الانتداب فى أثناء الاضطرابات والثورات العربية ، توزع الأسلحة على اليهود بحجة حمايتهم من هجمات العرب ، وفى خلال الحرب العالمية أخذت فى تدريبهم ، وكونت منهم فرقة الصاعقة « البالماخ » وقد عاد هؤلاء إلى فلسطين بأسلحتهم ، وقد ذكر الوزير البريطانى « ليتلتون » لبن جوريون بأنه يكفى ما نال اليهود من مضاعفة عدد رجال المستعمرات المسلحة وحسبانهم من رجال البوليس ، فتدفع لهم حكومة الانتداب مرتباتهم ، كما أنه درب وسلح حوالى ١٥٫٠٠٠ من اليهود واعتبرت « الهاجاناه » منظمة قانونية .

أما العرب فقد كانوا على النقيض من ذلك ، ليست لديهم

أسلحة ، فقد كانوا معرضين دائما للتفتيش والسجن ، إذا حازوا سلاحا ، وكانوا يقاومون فى جبهتين : الاحتلال ، واليهود ولم يستعدوا أى استعداد لمقاومة اليهود فى الساعات الفاصلة .

إنهم كانوا شعباً أعزل ، يعتمد أكثر مايعتمد على حقه فى وطنه ، ولكن الحق لا يمكن أن يسود إلا بمساندة القوة .

كانوا كثرة من غير شك ، ولكنها كثرة لم تنظم ولم تدرب ولم تزود بالسلاح .

عرفت حكومة الانتداب هذه الحقيقة وإذا هى — إثر الموافقة على قرار التقسيم فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ — تقف بجيشها مكتوفة اليدين وتركت الموقف فى أيدى العصابات الإرهابية . الأرجون — وشترن — والهاجاناه . وعمدت فى الوقت ذاته إلى مساندة فعالة ، كما حدث فى يافا إذ أخلى الجيش البريطانى مراكزه التى يحتلها فجأة فى ليل ٢٢ أبريل ١٩٤٨ وسلمها إلى اليهود ، وهى مراكز ذات موقع حربى ممتاز يشرف على جميع أنحاء المدينة ، وقد أخذ هؤلاء اليهود بما فى حوزتهم من مصفحات ودبابات فى الاستيلاء على المدينة ، وتسهيل الهجرة للعرب حتى يحتلوها ، ويتخلصوا من العرب الذين نزحوا إلى عكا بعد أن قتل منهم عدد وفير .

لم يكن هذا الانسحاب موقف الجيش البريطانى لمساعدة الإرهابيين فحسب ، بل إن الجنود البريطانيين سدوا المنافذ إلى المدينة بدباباتهم الثقيلة ، وحرموا على العرب ـ الذين تسامعوا بخبر المأساة ـ الوقوف إلى جانب إخوانهم فى ساعة العسرة والدخول إلى المدينة التى تستشهد ساعة بعد أخرى ، ويسام فيها العرب العزل سوء العذاب على أيدى هؤلاء الإرهابيين المتوحشين .

لقد سطر التاريخ فى العصر الحديث صفحات سوداً ، مما فعله الصهيونيون بالعرب كلما فتحوا بلدا أو دخلوا مدينة من القتل والتعذيب والتمثيل مما لم ير له التاريخ مثيلا ـ إلا ما كان من المغول والتتار ـ وآية ذلك مذبحة «دير ياسين» فى ١٠ أبريل ١٩٤٨ حيث أخذوا هذه القرية الصغيرة على غرة ، فباغتوها ليلا وذبحوا أحياءها رجالا ونساء ، شيبا وأطفالا ، ومثلوا بالجثث أفظع تمثيل ، وحملوا بعضها دليلا على بلائهم ويا له من بلاء . .

وكانت خطتهم إلقاء الفزع والرعب والتهويل فى مدى قوتهم وجبروتهم ليشغلوا الرجال بذويهم وأمتعتهم ونسائهم وأطفالهم والعمل على ترحيلهم دون الدفاع والصمود أمام هجماتهم ، وقد نجحت خطتهم إلى حد بعيد .

وكان الصهيونيون فى سلوكهم صورة متكررة لتاريخهم الحافل بالقسوة والبشاعة ، فأخذوا يدمرون القرى ويدكونها بالقنابل و الدبابات ، ويدمرونها على سكانها ، وينهبون ما فيها من متاع ومتاجر ، ومن بقى منهم أسر وعذب فى معتقلات تزرى بمعتقلات النازى لهم فى ألمانيا .

ولن نذكر هنا مايرويه الذين شهدوا هذه المأساة المروعة : من هتك الأعراض ، وبقر البطون ، والكى بالكهربا ، وما إلى ذلك من الأمور التى يندى لها جبين الإنسانية ويزهو بها هؤلاء البرابرة .

وكانوا لا يرعون عهدا ولا يبقون على ميثاق فعندما كان يسلم لهم العرب ويعاهدونهم على ألا يعتدوا عليهم فيما بعد سرعان ما ينقضون العهد ويعيثون فى الأرض فسادا ، وفى المحارم انتهاكا ، وهذه الأساليب الغادرة هى التى خلقت مأساة اللاجئين العرب وهم يقدرون بمليون عربى .

* * *

وبعد فإن هذه الوسائل التى أتينا عليها تعطى القارىء العربى صورة صحيحة لخلق الصهيونيين وسلوكهم ، وهى التى تحدد للأمة العربية موقفها من أقوالهم ومعسول أحاديثهم ، فلا تصيخ

إليها أو تنخدع بها ، وإن هؤلاء القوم لن تجدى معهم أية سياسة إلا سياسة القوة فهى اللغة التى يفهمونها و بغيرها لن تحل قضية فلسطين ولعل هذا هو السبب الذى حدا بالإسرائيليين إلى أن يدب فى قلوبهم الفزع والرعب عند رحيل القوات البريطانية من قناة السويس والجلاء عن مصر ، وهو الذى جعلهم يفرقون عندما اتحدت مصر وسورية وأصبحت دولة واحدة وهو الذى أقض مضاجعهم عندما قامت ثورة العراق فى ١٤ يوليو ، وكانت وجهتها الأولى الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة .

وهو الذى دفعهم إلى العواء وإلى تحريض كل من انجلترا وفرنسا عند تأميم قناة السويس ليحطموا القوة العسكرية التى أضحت للجيش المصرى بعد عقد صفقات الأسلحة الضخمة .

* * *

نعم إنهم لا يرهبون إلا سياسة القوة والحزم والإذلال كما فعلت بهم حكومة الانتداب فى عهد « بيفن » عندما رأتهم يولون وجهتهم شطر الولايات المتحدة الأمريكية ، وينالون من سياسة حكومة الانتداب ، فقد عقدت المحكمة العسكرية لمحاكمة هاربين من الجيش البريطانى ويهود فلسطين ، ووجهت إليهم تهمة تكوين حلقة كبيرة لتهريب الأسلحة ، وفى أثناء المحاكمة

وجهت التهم إلى بن جوريون والوكالة اليهودية والهستدروت والهاجاناه ، وظهر فيها بن جوريون بأنه المدبر لمؤامرة ضد جهود الحلفاء الحربية فى الشرق الأوسط .

ولما كشفت هذه المحاكمة سترهم — وقد دامت أربعة وثلاثين يوما — وطالب المدعى العام بحل هذا الطابور الخامس اليهودى ، ذل الصهيونيون ، وعادوا يقبلون أيدى البريطانيين ويتوددون إليهم ، ويطالبون بإلحاح تكوين جيش يهودى وفرقة للمظلات تهبط فى المجر لإيجاد حركة مقاومة داخلية .

أما غدرهم فقد استبان على حقيقته لا بالعرب فحسب بل بالبريطانيين أنفسهم عندما وقفوا فى طريقهم فى فتح أبواب فلسطين للمهاجرة غير الشرعية ؛ إذ أخذوا يغتالونهم ويشنقونهم ، وكلنا يعرف نسفهم لفندق الملك داود الذى راح فيه ضحايا كثيرون من البريطانيين .

وقد اشرنا من قبل إلى غدرهم بتشيكوسلوفاكيا التى أعانتهم بالسلاح ولكن سياسة الغدر إذا نجحت لحظة المبادرة ، فإنها تخلف وراءها أحقادا لا تزول إلا إذا غسلت بالدماء « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .



كان من أثر التطورات الفجائية فى الموقف فى فلسطين « بتقديم موعد رحيل الجنود البريطانيين » أن حدث انفجار فى هذه المنطقة إذ سارعت العصابات الإسرائيلية إلى احتلال المواقع التى كان يرابط فيها هذا الجيش ، بعد أن سلم أكثرها إلى هذه العصابات .

وقد ذكر المؤرخون أن العصابات الإسرائيلية كانت تتكون فى ذلك الوقت من عصابة « البالماخ » الصاعقة ، ويقدر عددها بثلاثة آلاف جندى ، وعصابتى الأرجون وشترن من ثلاثين ألف جندى ، وهاتان العصابتان اتسم أفرادها بالوحشية والنزعات الإجرامية ، وعصابة الهاجاناه « الدفاع » وتقدر بثمانية آلاف أخذت تزداد فيما بعد .

وخطورة هذه العصابات ، أنها كانت مدربة تدريبا عسكريا

حديثا ، ومسلحة بأسلحة على أحدث طراز ، وتعسكر فى مواقع استراتيجية هامة ، وتتصل بالبحر عن طريق ميناء حيفا وموانى أخرى ، وتعرف الطرق فى فلسطين معرفة دراسة واستطلاع ، وتقاتل قتال حياة أو موت ، وتعمل منذ الحرب العالمية الأولى لهذه الأيام العصيبة الفاصلة .

على حين أن السكان العرب ، لم تكن لهم جبهة منظمة فيما عدا قوات الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسينى ، وكانت أولى حركاتها فى ١٥ ديسمبر ١٩٤٧ ، وجيش الإنقاذ الذى شكلته الجامعة العربية ويتكون من قلة من أبناء البلاد وأكثرية من المتطوعين الذين وفدوا على فلسطين من البلاد العربية الأخرى بقيادة فوزى القاوقجى ، غير مزودين إلا بحماستهم وعقيدتهم ، ولم تكن قوى هذا الجيش منتشرة فى جميع المدن العربية الهامة ، وكان عدده لا يتجاوز سبعة آلاف محارب .

هذا بالإضافة إلى اللجان العربية التى تكونت على عجل فى المدن العربية للدفاع عنها ، ومقاومة الهجمات اليهودية التى ازدادت عنفا وشدة ، ولم يكن فى أيديها من سلاح إلا النزر اليسير الذى لا يؤبه له .

ومعنى هذا أن الموقف كان غير متكافئ ، وكان الأحرى

أن تعمد الجامعة العربية منذ أن وجدت إلى تدريب الفلسطينيين العرب تدريبا عميقا وأن تسلحهم تسليحا كافيا ، وبخاصة أنها كانت على علم بتدريب العصابات الصهيونية و بنشاطها المستعلن .

* * *

نعم كان الأحرى بالجامعة العربية فى ذلك الوقت أن تتخذ لهذا الموقف الأهبة والاستعداد ، لتتجنب المذابح الرهيبة التى حدثت إثر تخلى القوات البريطانية عن مواقعها فجأة ، ولتمهد السبيل أمام الجيوش العربية إذا تعذر على القوات الفلسطينية أن تصمد أمام الصهيونيين .

ولكن موقف الجامعة جاء متأخراً و بعد فوات الأوان ، فعندما شهدت المأساة الدامية التى تسيطر على الموقف فى فلسطين لم تجد مفرا من الالتجاء إلى الجيوش العربية ، لتخوض المعركة فكان أن اجتمعت لجنتها السياسية فى ١٣ أبريل سنة ١٩٤٨ ، وأصدرت قرارا بتحرك الجيوش العربية ، ودخول فلسطين إثر تخلى القوات البريطانية عن فلسطين نهائيا فى ١٥ مايو ١٩٤٨ حتى لا يحدث صدام بينها و بين هذه القوات .

ونحن نعلم أن القوات البريطانية كانت تحتل قناة السويس ، وأن هذه القوات كانت خطرا على القوات المصرية الزاحفة ،

فأفرادها لهم حرية التنقل وقد يروق لبعضهم السفر إلى فلسطين ، والاتصال باليهود فيها وعصاباتهم الإرهابية ، واطلاعهم على أسرار الجيش المصرى ومواقعه ، بدافع البغض للعرب والمصريين ، أو بدافع الميل إلى الصهيونيين ، أو بدافع الرشوة التى يتقاضاها ، ومن ناحية أن بعض هذه القوات يدين بالدين اليهودى الممول بقنام الصهيونية فيدفعه هواه إلى التمكين لاحتلال فلسطين بنقل بعض أسرار جيشنا وقوته الحقيقية ، ومن ناحية أن بريطانيا ربما يدفعها احتضانها للحركة الصهيونية إلى أن تهدد هذا الجيش الزاحف فى أى وقت تشاء .

هذا إلى أن الجيش المصرى فى ذلك الوقت لم يكن مسلحا كما ينبغى ، أو مدربا التدريب الذى يؤهله لخوض غمار حرب تشنها الصهيونية العالمية متحالفة مع الاستعمار — وإن يكن تحالفا فى الباطن — وهو جيش ناشىء قد قص أجنحته الاستعمار الذى كان جاثما على صدر مصر منذ سنة ١٨٨٢ م .

* * *

أما الجيشان الأردنى والعراقى ، فقد كانت قيادتهما إما فى أيدى الإنجليز مباشرة أو فى ايدى الضالعين مع الإنجليز والصهيونية .

والجيش اللبنانى لم يكن يعتبر جيشا ، فهو أقرب إلى أن تكون قواته قوات امن ، والجيش السورى كان جيشاً صغيرا ،

ولم يكن مسلحا بعد بالطائرات التى لها أثر بعيد فى خوض غمار هذه الحرب . وبعض هذه الجيوش لم يكن يعرف المواقع الفلسطينية معرفة دقيقة كما جاء فى مذكرات بعض الفلسطينيين

وجدير بالذكر أن الحكومات العربية آنذاك لم تكن مؤمنة إيمانا عميقا بالقومية العربية ، ولم تكن مدركة الخطر الصهيونى الذى يتهدد كيان الأمة العربية نخاضت غمار الحرب كمنة منها. وفضل .

وبعض هذه الحكومات دخلت هذه الحرب لتضم إليها أجزاء من هذه الأرض ؛ لتزيد الرقعة التى تسيطر عليها فهى تعمد إلى منع الجيوش العربية الأخرى من أن تتقدم فى هذه الرقعة التى تريدها لنفسها .

بهذه الروح ، وبهذا الاستعداد ، دخلت الجيوش العربية فى ليل ١٥ مايو ١٩٤٨ أرض فلسطين ؛ أما عصابات إسرائيل ، فكانت تحارب عن عقيدة راسخة استطاع زعماء الحركة الصهيونية أن يغرسوها فى نفوس أفرادها عن طريق توراتهم وتلمودهم اللذين يمجدان الشعب الإسرائيلى ، ويجعلانه شعب الله المختار ، وأن سيادة العالم ستكون له أخيرا .

وكانت تعمل عملا متواصلا مستمرا منذ صدور وعد

بلفور ، وقد استطاعت عندما رأت الأخطار تحدق بها من كل جانب أن تستقدم ثلاثين سفينة محملة بالمواد الغذائية ، والأسلحة الحديثة وصلت إليها فى ليلة ١٤ — ١٥ مايو فكانت عاملا هاما فى رفع معنوية المحاربين وأمدتهم بعون رائع فى أقسى لحظات مرت بهم .

وحمولة هذه السفن كانت مساعدة ، وعربون صداقة من كل من انجلترا والولايات المتحدة، فقد دفعت انجلترا ثمن المواد الغذائية من أموال اليهود فى انجلترا ، ودفعت ثمن الأسلحة اللجان المشكلة لهذا الغرض فى أمريكا .

واستطاعت هذه العصابات إلى جانب ذلك ، أن تستقدم طيارين متطوعين من بريطانيا وأمريكا وجنوب أفريقية .

ومع كل أولئك ، فقد استطاعت الجيوش العربية المتحركة أن تسجل انتصارات سريعة باهرة ، حتى كانت قاب قوسين أو أدنى من تل أبيب ، ولكن الدول الكبرى عندما رات أن إسرائيل قد أحدق بها الخطر وأنها فى طريق الموت المحقق ، نهضت لمساعدتها وكلفت « برنادوت » أن يبذل مافى وسعه لوقف إطلاق النار تمهيدا لعقد الصلح بين الطرفين ، وأخذت تضغط على الدول العربية وتهددها حتى أرغمتها فى ١١ يونيو

على قبول وقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع .

وفى خلال هذه الهدنة المفروضة لصالح إسرائيل استطاعت عصاباتها الإرهابية أن تحصل على طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة على حين أن الدول العربية لم تستطع أن تظفر بشىء لأن الدول الكبرى كانت تلاحقها فى كل مكان حتى لا تتزود بالسلاح .

وهنا انقلب ميزان القوى وأصبحت كفة العصابات الإسرائيلية هى الراجحة ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد رفض العرب مد أجل الهدنة أربعة أسابيع أخرى ، وتجدد القتال فى التاسع من يوليو ، واستطاعت الجيوش العربية — بما تمتاز به من صبر وعناد وجرأة — أن تواجه الموت وأن تقهره ، فمضت فى انتصاراتها ولكن الانسحاب المفاجئ فى الجيش الأردنى والعراقى من اللد والرملة ، ورأس العين ، ومرج ابن عامر ، والجليل الغربى ، جعل هذه المواقع مكشوفة ، فإذا العصابات اليهودية تستولى عليها ، وإن يكن بعد قتال من المجاهدين العرب الذين أبت عروبتهم وإيمانهم أن يتخلوا عن أرض آبائهم واجدادهم إلا على أشلائهم ، وقد كان .

وبانسحاب هذه القوات انكشفت ميسرة الجيش السورى

وميمنة الجيش المصرى ، وأضحى الجيشان فى موقف حرج مكن العصابات اليهودية من الاستيلاء على بئر السبع والمجدل ونصف صحراء النقب من الجيش المصرى ، وأضحت قواته محصورة فى الفالوجا .

وتحت ضغط الدول الكبرى وتهديدها فرضت الهدنة ثانية فى ١٥ يوليو عن طريق مجلس الأمن فاستجاب لها الطرفان فى ١٩ يوليو .

وبعد أقل من شهر خرق اليهود الهدنة فى الجبهة المصرية ، فاستبسل المصريون وأوقعوا بهم خسائر فادحة وطلب المصريون فى أثناء القتال من إخوتهم فى العروبة وحلفائهم فى الحرب أن يستأنفوا القتال ليشدوا أزرهم ، ولكن حكوماتهم لم تحرك ساكنا .

وفى ١٨ أغسطس عاد مجلس الأمن وأصدر قرارا بوقف إطلاق النار عندما كانت كفة الجيش المصرى راجحة .

وظل الجيش المصرى وحده فى الميدان يدافع عن مراكزه ، ويلقى هجمات اليهود الذين استبسلوا بعد أن وصلت إليهم المعدات الحربية من « تشيكوسلوفاكيا » وتقاطرت عليهم جموع اليهود ليقاتلوا إلى جانب إخوانهم ، حتى بذلت الولايات المتحدة وساطتها لإقامة هدنة دائمة فى فلسطين ، وفى الساعة الثانية بعد

ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٩٤٩ نفذ قرار وقف إطلاق النار وتم توقيع الهدنة فى جزيرة رودس فى ٢٤ فبراير سنة١٩٤٩ .

* * *

ويعود إخفاق هذه الجيوش فيما عدا العوامل التى أوردناها إلى : أنه لم تكن لهذه الجيوش خطة استراتيجية موحدة ، وأن الشعوب العربية لم تكن قد تحررت بعد واصبحت لها الكلمة العليا ، وأن الدعاية لحقها فى المحافل الدولية كانت خافتة ، هذا إلى أن حكوماتها لم تفكر فى استغلال الجفوة التى بين الاتحاد السوفيتى والغرب وأن تطرق باب روسيا لإمدادها بالسلاح ، إنها لم تفكر ، لأن هذه الحكومات إما أنها كانت مرتبطة بمعاهدات زائفة مع الغرب فتخشى إن فعلت أن يهددها أو يمنع المعونة المالية ولأن هؤلاء الحكام الإقطاعيين لم يكن لهم بالاتحاد السوفيتى أية صلات دبلوماسية أو علاقات تجارية أو ثقافية فكانت هذه النتيجة المحتومة وكان عليهم أن يتأسوا بقول السياسى الداهية تشرشل « فلأتحالف مع الشيطان » .



تفخر المدنية الغربية الحديثة بانها وضعت حجر الزاوية فى تقدم الجنس البشرى وتطوره ، ونحن نسلم لها بهذا الفخر ، ولكن أمرين حدثا فى هذا العصر يعدان عارا فى جبين الإنسانية ونقطة سوداء فى تاريخ المدنية الحديثة .

أما العار الأول : فهو إلقاء القنبلتين الذريتين على مدينتى « نجازاكى » « وهيروشيما » فقضيا أو قل : أبادا سكان مدينتين كانتا تحفلان بالحياة والطمأنينة .

وأما العار الثانى : فهو تشريد مليون عربى وطردهم من وطنهم وبقاؤهم إلى اليوم معلقين فى كفة الأقدار ، لا يعرفون لهم مصيرا ، ويعانون آلام التشريد والاغتراب والقلق النفسى من المآل المجهول والمستقبل الحالك السواد .

لقد نفخت الصهيونية فى بوق الدعاية معللة احتلالها لفلسطين بما لقيته الطوائف اليهودية من تعذيب وانتقام واضطهاد ، مستدرة عطف العالم بشقائها وآلامها عبر السنين والأجيال ، قد يكون لها بعض الحق إن تكن قد هولت وبالغت فيه إلى حد بعيد ، ولكن كيف نحل مشكلة اليهود على حساب آخرين هم إخوة فى الإنسانية ؟

إن الاستعمار فى فترة ما بين الحربين العالميتين التى اشتد فيها ساعد الصهيونية عرض على زعماء هذه الحركة الإقامة فى أرض بكر فى حاجة إلى الأيدى العاملة واستثمارها ، لخير العالم ورفاهيته « كأوغندا » مثلا أو الاستيطان فى أمريكا الجنوبية الواسعة الأرجاء ولكن غلاة هذه الحركة رفضوا هذه العروض تحت ستار الحنين إلى صهيون والتعلق بوطنهم الأول الذى أقام فيه أجدادهم منذ آلاف السنين .

إنهم فعلوا ذلك لأن العنصرية كانت قد فعلت فعلها فى نفوسهم وسيطرت على عقولهم ، فطالما رددت كتبهم التى يتداولونها ، الشعب ، والأمة اليهودية ، والجنس اليهودى .

فهل كان ينطبق عليهم فى هذه الحقبة مدلول الأمة ؟ وهل لهم مقوماتها ؟ إن أبرز مقومات الأمة ، الأرض المشتركة أى :

الوطن ، واللغة المشتركة ، والثقافة الموحدة ، والتاريخ المشترك ، والانحدار من جنس واحد يكون هو الغالب .

فإذا طبقنا هذه المقومات على الصهيونيين أو اليهود لم نر لها ظلا .

فاليهود قد شردوا عن ديارهم التي يسكنونها منذ ألفي عام ، واستوطنوا جهات متعددة في أوربا ، وفي أمريكا وفي آسيا وأفريقية ، بل في كل مكان كما حكم عليهم ربهم حين قال لهم :

« والله سيشتتك (أي الشعب) بين جميع الشعوب في جميع أنحاء الأرض ، وهناك ستخدم آلهة غرباء عنك كنت لا تعرفها من قبل أنت ولا آباؤك . ولن تجد الراحة بين هذه الأمم ولن تجد سندا في هذه البلاد . وهناك يعطيك الله قلبا مشدوها أو يضع الغضب أمام عينيك والضيق في نفسك وستجد نفسك كالريشة في مهب الريح ولا يمكن أن تؤمن حياتك » أي أنهم فقدوا الوطن واستعاضوا عنه بالأوطان التي عاشوا فيها وأظلتهم وأصبحوا فيها رعايا واكتسبوا جنسيتها واقترنت فيها كلمة اليهودي بالرجل الذي يتدين بهذا الدين شأنه في ذلك شأن المسيحي أو المسلم أو البوذي . إلخ .

ثم هو نزع عنه لغته الأولى العبرية القديمة ، واستعاض عنها بلغة أخرى ، لغة البلد الذي يعيش فيه بل إن الكاتب « ألفرد

ليلنتال « A. Liliantal » ذكر أن أغلب اليهود لا يعرفون العبرية القديمة أو الحديثة ، ومعرفة بعضهم لغة « اليديش » Yiddish أو لهجتها بأدق تعبير لا يجعله ساميا إذ أنها خليط من الألمانية والعبرية والسلافية[١] .

أما الجنس العبرى أو الإسرائيلى فقد انقرض منذ مئات السنين ، وليس هناك ما يمكن أن تطلق عليه الجنس اليهودى ، فالجنس له خصائص جثمانية ، وعقلية مشتركة يفقدها اليهود القائمون الآن ، فالكاتب اليهودى السالف الذكر يقرر أنه عندما زار القدس عام ١٩٤٤ رأى خليطا من الأجناس يتكون منه يهود فلسطين ، وأن الاختلاف بينهم لم يكن مقصورا على الملامح الأنثروبولوجية بل تعداها إلى الملبس واللغة والسلوك وطرق التفكير[٢] .

على أن صفاء الجنس قد أصبح اليوم خرافة بعد أن قرر ذلك علماء الأجناس .

ولست أدرى لم حاربت الديمقراطية النازية وأزهقت أرواحا بشرية لنبقى على نظرية الإخاء والمساواة والعدالة وحقوق الإنسان وتنزع هذه العنصرية التى احتضنها الشعب الألمانى ،

(١) What Price Israel P. 214,215,

(٢) Ibd, P. 225

العنصرية الآرية التى يمثلها هذا الشعب النقى كما يزعم قواده وفلاسفته وفى الوقت ذاته تناقض نفسها بنفسها وتمكن للصهيونية التى تدعو إلى عنصرية كريهة من أن جنسها هو خير الأجناس وسيدها .

إذن لا بد هناك من أمر أو أمور هى التى دفعت بدعاة الديمقراطية إلى مساندة هؤلاء المتهوسين تهوس « هتلر » من زعماء الصهيونية ، فى هذه الأمور .

لقد أتينا على بعضها فيما سبق ، ولأمور أخرى نعد منها النظرة الشزراء إلى العرب من جانب الغربيين فهم يعتبرونهم قوما رحلا غير قابلين للتقدم أو التمدين ، وأنهم شعب متعصب لدينه ولغته وقوميته وأن اليهودية الأم للمسيحية فالإنجيل أو العهد القديم مستمد من التوراة أو العهد القديم ، فهى أقرب إليهم من الإسلام فى زعمهم ، هذا إلى نشاط الصهيونيين وتوجيههم للدعاة وعرقلتهم كل صوت يدعو إلى العطف على العرب واعتبار صاحبه عدوا للسامية ، والسامية - « فى دعوتهم المضللة » - هى : الصهيونية مع ان العرب هم الأساس الأول لكل الشعوب السامية ، وأن شبه جزيرة العرب - « فى أصح الآراء وأحدثها » - هى منبع الشعوب السامية كلها ومنها العبرانيون .

ومهما يكن من شيء ، فقد وقع الغربيون فى تناقض فاضح . إنهم دخلوا الحرب العالمية الثانية الطاحنة ليقضوا على التعصب والدكتاتورية والاضطهاد وإذا هم بعد أن انتهت الحرب يتنكرون للغرض الأسمى والقيم الرفيعة ويستبدلون اضطهادا مروعا باضطهاد آخر ، فاضطهاد اليهود فى ألمانيا لا يسوغ لهم اضطهاد شعب آخر ليؤمنوا الصهيونيين .

لقد كان بوسعهم أن يوطنوا الصهيونيين فى بلد آخر أكثر طمأنينة وأن يلزموا الدول الأخرى العالمية — عن طريق ميثاق الأمم المتحدة » — بالتسامح مع الطوائف الإنسانية وأن يمحوا « كلمة تعصب » من قانون الشرائع ، أما أن يساندوا الصهيونيين فى دعاواهم الكاذبة ، ويناصروهم بالسلاح والتأييد الأدبى ، كما فعلوا فى منظمة الأمم المتحدة حين عرضت قضية فلسطين ، وأخذوا يضغطون على الدول المحايدة ضغطا مستمرا فيه تهديد ووعيد فهذا ما نؤاخذهم به ويؤاخذهم التاريخ .

لقد أحالت المملكة المتحدة قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة لتتخلص من المشكلات الحادة التي تعرضت لها فى أثناء الانتداب ، والضغط المستمر عليها من جانب الصهيونيين والعرب والولايات المتحدة الأمريكية ؛ ولأنها قد أدت دورها كما ينبغى بل أكثر

مما ينبغى ، فانعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورة خاصة فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٤٧ وبعد أن استعرضت القضية الفلسطينية من جميع نواحيها استعراضا سريعا قررت تشكيل لجنة تحقيق من إحدى عشرة دولة صغرى هى : استراليا ، كندا ، تشيكوسلوفاكيا ، جواتيمالا ، الهند ، إيران ، هولندا ، بيرو ، السويد ، أرجواى ، يوغوسلافيا ، وعين القاضى السويدى « أميل ساندستروم » رئيسا وقد تعرضت هذه الدول لضغط شديد ملح من جانب الصهيونية العالمية بلجانها ومؤسساتها الاقتصادية ، ودور نشرها وإذاعاتها .

وفى ٣١ أغسطس قدمت هذه اللجنة تقريرين ، تقريرا برأى أكثرية اللجنة من مندوبى كندا ، تشيكوسلوفاكيا ، جواتيمالا ، هولندا ، بيرو ، السويد ، أرجواى ، ويقضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين : إحداهما للعرب ، والأخرى لليهود ، على أن تقوم بينهما وحدة اقتصادية وتدويل مدينة القدس ، وتقريرا آخر برأى الأقلية من مندوبى : الهند وإيران ويوغوسلافيا يقضى بإنشاء دولة واحدة على نظام فيدرالى . ولم تؤيد استراليا أحد الرأيين .

وتعددت اجتماعات الجمعية العامة وفى أثناء إحدى هذه

الاجتماعات عرض مندوب الولايات المتحدة مستر هرشل جونسون Herschel Johnson فرض التقسيم بالقوة عن طريق المتطوعين ولكن اقتراحه لم يوافق عليه .

وفى ٢٦ نوفمبر ١٩٤٧ طرحت القضية ليصوت عليها ، ونال مشروع التقسيم موافقة خمس وعشرين دولة ضد ثلاث عشرة دولة ، وامتنعت سبع عشرة دولة عن التصويت ، وبهذا لم يحرز المشروع أغلبية الثلثين . وهنا اقترح الوفد الأمريكى تأجيل التصويت إلى مساء ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، لينفذ المشروع ويتولى الضغط على بعض الدول لتصوت فى جانب التقسيم ، وقد نجح فى مهمته ، وأصبحت ثلاث وثلاثون دولة موافقة على التقسيم عند الاقتراع الثانى .

* * *

وبعد فلعله الحدث الأول من نوعه فى تاريخ البشرية أن يعرض مستقبل بلد من البلاد او وطن من الأوطان بغير رضا من أهله أو اكتراث بهم فى مساومة دولية كهذا الذى حدث فى شأن عرب فلسطين .

لقد طرح هؤلاء العرب فى مزاد على أقامته دولة لا يربطها بهم أى رباط من قريب أو بعيد ، وكان علي هذه الدول إذا

أرادت توخى الحق والعدالة استفتاء هذا الشعب أو الوقوف على رأيه وألا تفرض عليه فرضا أى قرار من القرارات مادام شعبا غير معتد أو غاصب .

لقد كان الحق فى جانبه ولكن الغربيين تآمروا عليه تآمرا دنيئا ، ورتبوا حقوقا لغاصبين وطنوهم فى أرض يسكنها غيرهم ، وأمدوهم بالعتاد والمال والرجال ، ومنحوهم الحق الذى ليس لهم أن يمنحوه .

وبهذا العمل المخزى ارتكبوا جرما لن تنساه لهم الأمة العربية والشعوب الإسلامية وكل مؤمن بالحق والعدالة .

لقد شردوا بفعلتهم المنكرة وعارهم الأبدى مليونا من العرب ، لا يزالون إلى اليوم يضطرمون بالحقد والكراهية لهؤلاء المتآمرين الذين اعتمدوا على قوتهم لينصروا باطلا ، ولكن القوى لن يظل قويا ، والحق لا يضيع ووراءه حشد من المطالبين به ، والمدافعين عنه والمضحين فى سبيله .

هذا هو منطق التاريخ وهو قوله الذى يعلو كل قول .

القوميّة العربيّة والصهيونية

وجدت القومية العربية كقومية بظهور الدعوة المحمدية وتوحيد الوطن العربى تحت راية واحدة ثم أخذت عواصم هذا الوطن تتلقف الراية واحدة بعد أخرى ، وتحافظ على التقاليد العربية وتحكم باسم العروبة مرة والإسلام أخرى ، إلى أن حاولت القومية التركية تغليب لغتها ، ونشر ثقافتها ، ولكنها أخفقت فى محاولتها ، وظلت اللغة العربية والثقافة العربية والروح العربية مسيطرة على هذا الوطن إلى حد كبير ، ثم كان الاستعمار الغربى الذى ظهر فى الشرق الأوسط باسم الصليبية حينا ، وباسم المدنية حينا آخر والذى حاول محاولات عنيفة ليثبت قدمه فى هذه المنطقة ويمزق أوصالها ويعفى على ثقافتها ويضعف معنوياتها ، ولكنه أخفق هو الآخر إخفاقا ذريعا ، وبدأت القومية العربية تدرك هذا الخطر المحدق بها وتعمل جهدها لإحياء تراثها القديم والكشف عن نقاط الضعف فيها

وتقويتها وأخذت تسير فى هذه السبيل بخطًى إن لم تكن حثيثة فهى وئيدة .

وفى أخريات القرن التاسع عشر كما أسلفنا ، بدأت اليهودية تتطلع إلى هذه المنطقة وتحاول أن تتسلل إليها وقد وجدت فى الاستعمار الغربى المشجع الأكبر والصدر الحنى لأنها ستخدم أغراضه وتكون مطيته وطابوره الخامس إذا أراد أن يثب على هذه المنطقة إذا تحررت أو سلكت مسلك الحياد ، ثم تكون له الجسر الذى يجتازه ، والطريق الذى تعبره قواته .

وادعت اليهودية أنها قومية كالقوميات الأخرى على الرغم من انحلالها على تتابع السنوات الطويلة ، وفقدانها الوطن منذ أجيال ونسيانها لغتها القديمة ، وأنها فرع ضئيل جاف من دوحة السامية التى يمثل العرب فيها جذعها وجذورها وأفرعها المتطاولة .

إن العالم يعرف اليهودية كدين من الأديان السماوية ، ولم يعرفها كقومية من القوميات .

كانت هذه الحركة الصهيونية الحافز القوى لتجمع العرب وإدراك هذا الخطر المدفوع بقوى استعمارية وصهيونية عالمية .

وظهر هذا الخطر حقيقة ملموسة منذ صدور تصريح « بلفور » ، فميثاق عصبة الأمم ، فصدور قرار التقسيم ، ففرض

هذا التقسيم بالقوة والتهديد على ما أسلفنا !!! أى فى مدى ثلاثين عاما ، ولاشك أن الصهيونية قد استطاعت أن تشكل خطرا على الأمة العربية عندما كانت هذه الأمة مغلوبة على أمرها لم تتحرر بعد تحررا اقتصاديا ، أو سياسيا ، أو اجتماعيا ، وعندما كانت هذه الأمة منقسمة بعضها على بعض ، ورازحة تحت وطأة الجهل والفقر والمرض ، ومحالا بينها وبين القوة العسكرية ، ومحكومة حكما إقطاعيا وحزبيا بغيضا ، ورؤساؤها من الطاعنين فى السن الذين تنقصهم الحماسة والسير فى طريق الإصلاح سيرا واسع الخطى .

فطنت القومية العربية إلى هذه العوامل التى هزتها هزا عنيفا ، وأدت إلى إخفاقها أمام الخطر الصهيونى ، وكان أن حدثت فى هذا الوطن أحداث كبرى غيرت الموقف فيه تغييرا كبيرا . أما أعظمها شأنا فهو قيام الثورة المصرية العربية فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ، وكانت هذه الثورة نقطة انطلاق القومية العربية ، فقد أدرك قادتها فى خلال حربهم فى فلسطين متطوعين وفى الجيش النظامى أنه لا سبيل إلى دفع هذا الخطر الصهيونى الاستعمارى إلا إذا تحرر هذا الشرق العربى بمفهوم التحرر الواسع ، التحرر الاقتصادى والتحرر الاجتماعى ،

وأن يكون للعروبة كيانها وشخصيتها فى المجال الدولى ، فلا تظهر تابعة لدولة كبرى أو وسطى ، وأن يتحد هذا الوطن العربى ، فالاتحاد قوة والتفرق ضعف ، يتحد هذا الوطن على الأقل فى السياسة الخارجية وفى الدفاع ، وفى الثقافة وفى الاقتصاد ، وأن يكون خير هذا الشرق المتمثل فى كنوزه الطبيعية ، وثماره الزراعية وكونه معبرا بين الشرق والغرب ، عائدا على الأمة العربية التى تقطنه .

ولن يتحقق هذا الأمر إلا إذا قمنا بالمشروعات الحيوية الكبرى التى تهيئه لأن يكون صناعيا ، وإلى أن تستغل أرضه على نطاق واسع . إن الدعاية المضللة التى اصطنعتها اليهودية لتبرر قيامها فى هذا الوطن العربى : أنه متخلف فى الزراعة والصناعة ، وأنها الرسول الملهم الذى أوفد إلى هذه المنطقة ليعلم أهلها ، ويقودهم إلى التقدم فلتغرق هذه الدعاية فى طوفان النشاط والحماسة وزيادة الإنتاج ، والنهضة الصناعية أو قل الثورة الصناعية .

وقد استطاعت هذه الثورة أن تحقق أهدافا كبرى من هذه الأهداف وهى تقوم الآن بتنفيذ المشروع الحيوى العظيم مشروع السد العالى ، وبرامج التنمية الاقتصادية .

ثم وجدت هذه الثورة أن عليها عبء تقوية الجيش المصرى العربى لتؤمن كيانها ، وبخاصة بعد أن أخذت الصهيونية فى العدوان المسلح على المواقع المصرية العربية وبخاصة الهجوم على « غزة » فى ١٩٥٥/٢/٢٨ الذى قتل فيه ٣٦ وجرح ٣٣ ، ثم الهجوم على « خان يونس » فى ١٩٥٥/٨/٣١ الذى قتل فيه ٤٦ وجرح ٥٠ وتبعها الهجوم على « الكونتلا والصبحة » فى نفس العام ، فأخذت تطرق أبواب الدول الغربية التى أخذت تماطل وتسوف وتراوغ ، وبخاصة الولايات المتحدة التى استغلت الصهيونية نظام الحزبية فيها ، ففى انتخابات سنة ١٩٥٤ قدم زعماء اليهود مذكرة إلى المرشحين « للكونجرس » طالبوا فيها : بإرغام الحكومة على وقف المعونة العسكرية إلى العرب ، وكان التعهد الذى طلب من المرشحين هو : —

إنى لا أوافق على منح معونة عسكرية لأية دولة عربية إلا إذا :

١ — وافقت الدولة على الانضمام للدفاع عن العالم الحر ضد أى عدوان شيوعى .

٢ — ووافقت على إجراء مباحثات الصلح مع إسرائيل .

٣ — ووافقت على رفع الحصار المضروب على إسرائيل .

وعلى سماح مصر للسفن الذاهبة إلى إسرائيل والآتية منها بالمرور في قناة السويس .

كما يجب على الحكومة أن تقوم بجهود تحمل فيه الدول العربية على الجلوس مع إسرائيل للتفاوض على الصلح .

وفى يوم الانتخاب وقع هذه المذكرة عدد يربو على ٤٠ ٪ من مجموع الأعضاء .[1]

ولما رأى قادة الثورة هذه المراوغة التى ظلت مايقرب من ثلاث سنوات اتجهوا إلى طرق أبواب أخرى ، وكان أن حصلوا على صفقات أسلحة من الكتلة الشرقية .

وكان هذا التسلح القوى ضربة قاضية للصهيونية ، التى ركبها جنون الخوف ، وإذا هى تبذر الفتنة بين مصر وبين الغرب كان من أثرها امتناع الغرب عن منح قرض لمصر عن طريق البنك الدولى لإنفاذ مشروع السد العالى ، ثم رد مصر على هذا الإجراء بتأميم شركة قناه السويس المصرية ، وانتهز الصهيونيون هذه الفرصة المواتية فعملوا على الصيد فى الماء العكر ، وإذا الاستعمار يوحى إليهم بالتحرك ، وتهديد القوات المصرية العربية

---

(١) هكذا ضاع الشرق الأوسط لألفرد ليلنتال ص ١٠٧ ترجمة لجنة « اخترنا لك » .

فى فلسطين ، ليضرب ضربته فى بورسعيد والأراضى المصرية .

فى هذا العدوان الثلاثى ظهرت القومية العربية !! واشتعلت حماسة العرب فى كل مكان ، وقامت بدورها المجيد فى رد العدوان ، وإجبار القوات المعتدية على الانسحاب .

وكان من النتائج الفاصلة لهذا العدوان ، وحدة مصر وسورية ، واندماجهما فى دولة واحدة هى الجمهورية العربية المتحدة ، وتعدادها ما يقرب من ثلاثين مليون نسمة .

ولا ريب أن هذه الوحدة حدث ضخم فى تاريخ المنطقة ، لأنها قامت على التضحية والإيمان بالوحدة العربية الشاملة .

* * *

هذه بعض مكاسب القومية العربية فما هى مكاسب الصهيونية إن وجدت ؟ .

لقد خيل إليها أنها أوجدت دولة وحققت حلماً ، ولكنها فى الواقع قدمت خدمة كبرى للقومية العربية ، إذ منحتها مصدرا للقوة والنماء والوحدة والتحرر وكانت وبالا على اليهود فى العالم فتغيرت النظرة التى كان ينظر بها إليهم ، إذ عرفوا على حقيقتهم واستبانت نياتهم الخبيثة ، لقد اصطنعت دولة تعيش على فوهة بركان يستبدبها الخوف وينقصها الاستقرار ، وتعيش على

هبات الآخرين ، دولة متسولة لا أكثر ولا أقل ، تعيش بين جيران تضطرم صدورهم نحوها بالحقد والضغينة ، إنها وقعت بين شقى الرحا تنتظر نهايتها الأخيرة .

دولة تمزقها الانقسامات الداخلية ، انقسامات حزبية ، وثقافية ، وعنصرية

دولة تنفق أكثر دخلها على التسلح .

دولة تحاول أن تستقدم يهود العالم ولكنها لم تفلح ، لأن اليهود الذين يعيشون فى الدول الأخرى يعلمون حقيقتها فيفرون منها فراراً.

دولة تحاول التوسع ولكنها محاولة مخفقة لأن العرب قد صمموا على أن يخنقوا هذه المحاولات فى مهدها .

دولة قائمة على التمييز العنصرى . فهى تجعل العرب المسيحيين والمسلمين فيها فى الدرجة الثانية وتضع عليهم قيودا ثقالا ، وتضطهدهم اضطهاداً مدمراً ، وتحول بينهم و بين التعليم المثمر ، وتمنعهم من التعليم العالى .

دولة زائفة مصطنعة ليست لها مقومات الدولة .

دولة كلما هيء لها أن تموت سارعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى حقنها ، لتدب فيها الحياة من جديد ، فقد ورد

فى الكتاب الإحصائى السنوى الذى صدر فى واشنطن فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ : « إن المساعدات التى صرفت لإسرائيل بلغت ٤٥٤ مليونا من الدولارات على حين أن ماصرف لمجموعة الدول العربية ١٨٧ مليونا » .

ويؤكد إصرار هذه الدولة على قيام إسرائيل ، قول « جون فوستر دالاس » عندما كان رئيساً لوفد الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ : « قبل قليل من أخذ الأصوات فى الجمعية العامة أمضيت ليلة مع المندوب العربى الذى يشغل أكبر منصب رسمى فى الوفد العربى وكان يعتبر المتحدث الرسمى باسم البلاد العربية وشرحت له فى أقوى العبارات أن دولة إسرائيل ستنشأ ، وأنه من الحمق والخطأ مقاومتها [١] » .

وكان ينبغى أن تتعظ هذه الدولة من أحداث التاريخ ، تتعظ من هزيمة المغول أمام القوة العربية ، واندحار الاستعمار الغربى أمام القوات العربية ، وطرد الصليبيين فى هذه البقعة من الأرض بالذات .

وكان ينبغى أن يدرك ساستها أن أية دولة لا يمكن أن يكتب لها البقاء إذا صارعتها الدول التى تحيط بها مرات ومرات فى

---

(١) حرب أم سلام مترجم ص ٧٥ طبع القاهرة .

نهاية الشوط ، لابد لتسعين مليوناً من هزيمة المليون والربع يهودى بإسرائيل .

وكان الأحرى بها أن تفهم نفسية العرب على حقيقتها ، النفسية التى لا تنسى الإهانة أو إغفال الأخذ بالثأر طال المدى أو قصر وتعرف للمحسن إحسانه وللمسىء إساءته .

لن ينسى العرب وطنهم فلسطين ولن ينسى العرب تشريد مليون[1] من أبناء الأمة العربية .

إن العرب جميعهم يعلمون أن الولايات المتحدة الأمريكية لو أوقفت معونتها عن إسرائيل أربعاً وعشرين ساعة ، لانهارت إسرائيل كما يذكر الفرد ليلنتال .

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة تريد أن تبقى إسرائيل وهى التى تقف وراءها لتحول دون انهيارها ، ـ ولكن دوام الحال من المحال ـ ففى الولايات المتحدة سيأتى اليوم الذى يتغلب فيه صوت العدالة والحق ، وهناك الدول الآسيوية والإفريقية والأمريكية والأوربية التى تساعد العرب فى حقهم وتؤمن بعروبة فلسطين .

وإذن فالزمن فى جانب القومية العربية واندماج فلسطين العربية بعد تحررها فى الوطن العربى الكبير وهذا ما تؤمن به القومية العربية وتعمل له .

(١) أصبحوا الآن مليونا ونصف

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة

فاحرص على ما فاتك منها . . .

والطلب من :

١ ــ دار القلم ... ... ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

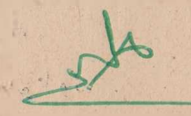
٢ ــ مكاتب شركة توزيع الأخبار ... ... فى الإقليم المصرى

٣ ــ وكلاء الشركة القومية ... ... فى جميع البلاد العربية

٤ ــ مكتبة المثنى ... ... بغداد ــ العراق

٥ ــ الشركة القومية للنشر والتوزيع ... ... تونس

٦ ــ مكتبة الندوة ... ... أم درمان ــ السودان



المكتبة الثقافية

٤٥

صراع على أرض الميعاد

محمد عطا

١٥ سبتمبر ١٩٦١